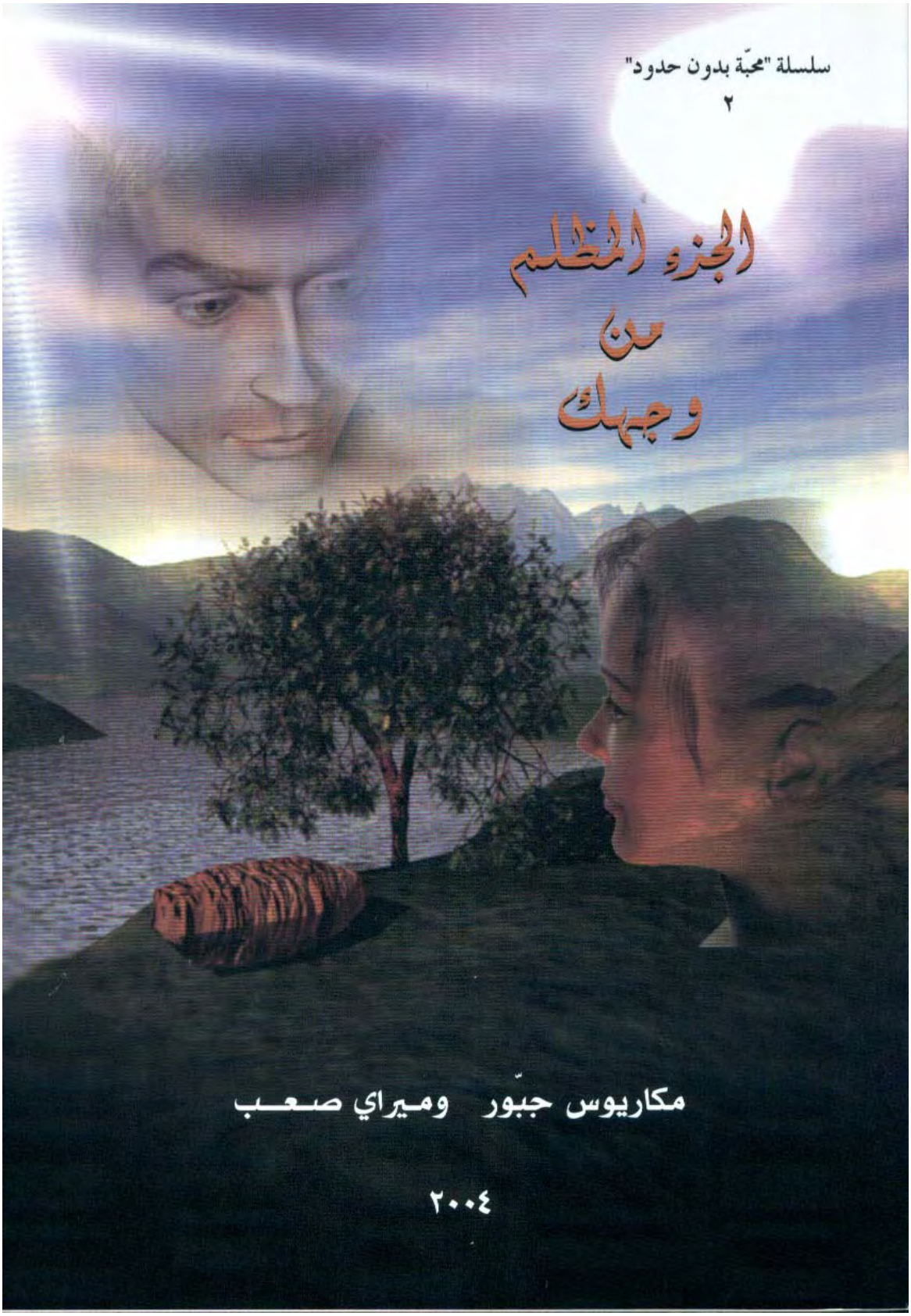
سلسلة "محبّة بدون حدود"
٢
الجزء المظلم
من
وجهك
مكاريوس جبّور وميراي صعب
٢٠٠٤

استهلال

ميراي

في نهار جميل، كانت تضحك للأرض السماء، وبعد طول فراق، ركضت الفتاة وارتمت بين ذراعـي أبيها... عانقته بكلّ ما أتاها الله من قوة، وراحت تشد على جسده لعلّها تخترق روحه لتتربع هنـاك، حيث، لا يمكن أن يكون أبدا ثمّة فراق أليم، وحيث قسوة البعد لا يمكن أن تتمكّن مـن أن تسـلبها عرشها الأميري من جديد.

لقد روى ذلك العناق الصامت قصة الأبدية، وراح يتلو أناشيد الحياة والموت، الأمل والبؤس، الغـنى والفقر... في قصائد طوال... وكأنه يقص حكايات عجوز طاعنة في السن مختبئة وراء تجعدات وجهها ونظّاراتها وعصاها.

هناك، حيث الشمس تسكب نورها، وحيث يظن المرء بنفسه أنه جالس في صـالة يشـاهد فيلمـا سينمائيا، وحيث اللحظات تعبر خاطفة. هناك، ارتمى على بساط يقلّب في صفحات أحد كتبه، وعلى أنغام أغنية كوكب الشرق أم كلثوم "**الحب كلّو**"... ماضٍ من وجد ووجدان. فالسيناريو الذي خطّته السماء والبحر والجبال والسهول والأودية والأشجار والأزهار قد وجد صداه في ذلك النهار، فتحقّقت عندها مقولة الأب: فلا بد أن يكون الإنسان ولو للحظة واحدة طبيعيا وبسيطًا معا.

فهل تكون مجموعة القصص هذه نماذج حقيقية وواقعية من أحداث عشناها أو عاشها من هم حولنا من إخوة وأصدقاء ومعارف؟

هذا ما نتركه لكم أن تحكموا فيه.

فذلكة

مكاربوس

ما بين القديم والحديث، ما بين البداية والنهاية، هناك دائما قصة تسير أحداثها من واقع إلى آخـر، ومن واقع إلى خيال، ومن حقيقة إلى وهم...

إنها قصة الإنسان، قصة كائن يبحر بين الأنسنة والتألّه، بين التناهي وعدم التناهي، وبين السـفليات والعلويات. وفي أغلب الأحيان يحفر بين ذاته وذاته هوة عميقة، هوة يرمي فيها ويبني في أسفلها كلّ ما يمكن أن نسميه اليوم: الأخلاق، القيم، المشاعر، الأحاسيس، التدين (لا الإيمان)، وبعبارة واحدة، كلّ ما ندعوه اليوم سيكولوجية الإنسان وعلم اجتماعه، وإلى ما هنالك من فذلكة سخيفة في ومن وإلى وعلى الإنسان. وتبقى الحقيقة الوحيدة والفريدة وملخصها فلسفة حق تدعى فلسفة الكائن الأساسية، إنها لعبة الامتلاك والتجرد، التصوف والغنى، وكلاهما في نهاية الأمر مصير واحد... إنه الإنسان بين وبين...

قالوا كثيرا في الإنسان وسيقولون أكثر، ويبقى الإنسان: جسد - عقل/نفس - روح، كائن يبحث عن اتزان وتوازن بين هذه العناصر الثّلاثة...

أنا وأنت وهو، وكلّ يغني مواله الحزين أو المفرح، وفي الحقيقة إنّ الموال في الموسيقى العربية ملحـن دائما أو في أغلب الأحيان بلحن حجازي أو عجمي، ويمثّل أو يعبر عن: ألا- إما، أو، يا ليت، لو، إذا، الخ.

حلم وحقيقة من نسج الخيال.

محاولة تقديم يائسة

مكاربوس

خارج العقل البشري الذي يعقل، لا وجود لكلّ ما هو موجود (ملخص فلسفة كانط)، إنها فكـرة رائعة. ويبقى السؤال، أليس العقل البشري موجود يعقل ذاته؟ الله أعلم!

والإنسان عقل وتاريخ، وقليل أو كثير من الانفعالات (ملخـص الفلسـفة الهجيليـة الخضـمة أو الضخمة).

والتاريخ واحد، ولولا أرسطو والفلسفة اليونانية لما كنا اليوم قد عرفنا لفافة ورق التواليـت. فـلا خلاص للعقلنة والمعرفة والعلم بدون الفكر اليوناني - وخارج أرسطو هل كان بإمكان الفكر القـديم والوسيط والحديث أن يوجدوا جميعهم؟

وما بين الفكر اليوناني وفكر اليوم حلم جميل، عالم بديع، عبقرية من نوع آخر، سـعادة متألّمـة، وحزن مفرح.

عرف التاريخ البشري فلسفات ثلاث:

- الفلسفة اليونانية.
- الفلسفة الهيجلية بجميع تياراتها.
- بينهما ومعهما وقبلهما وبعدهما فلسفة الصليب:

الوحدة لا التوحيد،

التفرد لا التعددية،

الاختلاف،

هذا ما يعالجه علم النفس اليوم، ربما!

يحتوي هذا الكتاب الصغير على مجموعة من القصص الصغيرة، هي في الواقع بعض الخبرات التي عشتها خلال فترة خمس سنوات من عملي مع مختلف فئات الناس. وجميع هذه القصـص واقعـي وحقيقي ولو كنت قد أعطيته طابعا ساخرا في بعض الأحيان، أو ألبست شخصياته أثوابا وهمية. أما الهدف من نشره فهو إيصال كلمة من الواقع إلى الواقع، فربما يجد القارئ فيه شيئًا قد يفيده أو ينير طريقه، خصوصا أنّ عالمنا اليوم يحتاج إلى الكثير من العبر.

الآن أدركت معنى أن يكون المرء أبًا...

ميراي

سنون مرت ما كانت في الحسبان، أيقنت معها أنني فلذة من كبده، وقطعة من لحمه ودمه، وحلم من أيام طفولته، ووعي والتزام وإدراك من أيام حداثته، وخليفة له في عهد شيخوخته الساخرة...

سنون مرت ما كانت في الحسبان، أيقنت معها أنه يوجد في الأفق البعيد، الغامض الأمد، مـن وراء الشمس والبحر والجبل، من كان يهمس صراخ ولادتي في أذنيه، ومن كان يسمع ضـجيج ركضـي السريع، مفتشا عن مصدر الصوت وإنما عبثًا كان يحاول، ومن كان يبقي في صحنه وفي كوبه، بـدون أن يعي السبب، ما قد يسد جوعي ويروي عطشي، ومن كان يجفّف يديه من الدمع الجاري من مقلتي، ومن كان ينظر حوله فلا يرى وجها لأحد، ومن كان يبتسم لضحكات مسموعة في الهواء، ومن كان يفتح ذراعيه الكبيرتين، من دون أن يشعر بما يفعل، كي أستسلم في داخلهما إذا ما خفت ليلاً، أو إذا ما شدني صوت الرعد، ولمعان أسياف البرق...

سنون مرت ما كانت في الحسبان، ودفاتر ذاكرتي الخائنة لا تزال قابعة في تلك الزاوية البـاردة مـن جراء الصقيع القارص تناجي بصوت خافتٍ من يلملم صفحات أوراقها المبعثرة ومن يملؤها مـن حـبر قلمه.

والتقينا ثلاثتنا: أنا وهو ودفتر المذكّرات، بعد بحثٍ مضنٍ أحدنا عن الآخر، وبعد مناجـاة طويلـة لاكتمال أنصافنا المشتتة، وفي لقائنا الغريب شيء من ذاك السحر المقتص من أقاصيص الأطفال، ومـن حكايات المساء، وعبرة لكي نفهم ولو لبرهة معنى الأبوة وأهمية البنوة، وصلاة تردد مع المزمور ٤٠: "**ما أكثر عجائبك لنا وتدابيرك أيها الرب...كيف** لي **أن أحدث بها فهي أعظم من أن تحصى...**"[١].

فأدركت بعد انقضاء أعوام معنى أن يكون المرء أبًا.

[١] مزمور (٣٩) ٤٠: ٦.

مجرم في ملكوت السماوات

من مكاريوس إلى أدريانوس

يسألونني عن سبب نجاح هذا وفشل ذاك، وعن مصير هذه وماضي تلك... لماذا يا تـرى؟ لمـاذا نكذب ونخدع؟ لماذا نتخفى ونتقنع؟ لماذا نضحك عليهم ويضحكون علينا؟ وإلى أين وحتى متى تستمر بنا الأيام ونستمر بها؟

لقد سئموا من حزني وكآبتي، وضجروا من فوضويتي... يستغرب بعضهم كيف أستطيع احتمال جميع تناقضاتي وفوضويتي وكيف أقدر على الاستمرار...

وأنا، بعد كلّ هذه الأيام والسنين التي قضيتها في بناء الأبراج والحصون، وبعد أن تعلّمـت ولا أزال أتعلّم مختلف العلوم، وبعد أن تمكّنت من معرفة أغلب حركاتي وتصرفاتي، سـقطت في هـوة عميقـة وسحيقة هي هوة الاستهلاك.

أجيبك أيها الشاكي الذي لا يدري بحالي، ولا أظنه يدري بحاله أيضا: أين أنت من كلّ ما تعلّمـت وعلمت وعرفت؟ جئت اليوم تسألني عن... وعن.... وجميعها أمور متعلّقة ومرتبطة بالأصول والجذور، وبالصناعة والاستهلاك، فمن أين لي أنا الواثق والمقتنع بجهلي أن أجيبك.

تسألني: ماذا يعني أن تكون أصيلاً؟ وهو سؤال مجهول غريب مستهلك وأحمق! وعلى كـلّ حـال، هاك الجواب.

الطقس حار في الخارج. وأعرف بأنّ الأمر لا يهمك كثيرا، أو ربما لا يهمك أبدا...

ذهبت لأشتري علبة حلوى، فدخلت المحلّ وطلبت من البائع مرادي... وكان ما كان... وخرجت من عنده بعد ساعة ونصف الساعة، وبدون أن أعي ماذا فعلت أو عن أي شيء تكلّمت أو بماذا أجبت، عرفت، أقلّه، بأني قد انتظرته ساعة ونصف، مصغيا تارة باشمئزاز وأخرى بغضب وأخـرى بابتسـامة جافة. وعندما أنهى كلامه تأوه قائلاً: من الأفضل لنا ألاّ نعرف شيئًا.

حديث جميل وفي غاية الأدب طبعا.

خرجت من عنده وعدت أدراجي وأنا أفكّر ما عسى أن تكون الأزمة الحقيقية في أوغنـده؟ فقـد كانت أوغندا محور حديث بائع الحلوى من الساعة الثّامنة صباحا وحتى التاسعة والنصف منه.

لقد فرج عن نفسه، كما يقولون. وكان ممتعا منطقُه وتحليله لدرجة أنه لم يكن يدري ماذا يقول، أو يعرف لماذا تهمه أوغنده إلى هذا الحد.

وعندما وصلت إلى منـزل من دعاني لزيارته، اندهشت جدا (وأنا من استمتع بحديث بائع الحلـوى كي لا أدخل بيته ويدي فارغة "كما يقولون") عندما تقدمت زوجته معتذرة مني وقائلة: لقـد عـاد

زوجي متعبا من عمله وغاضبا، وأنا لا أعرف ماذا حلّ به، إنه في الداخل مستلق لا يريد إزعاجا من أحد.

رائع جدا كبداية. أليس كذلك؟ نعم!

وما إن هممت بالرحيل حتى ضج صوت الزوج في المنزل يناديني، فقلت في نفسي: منيح حس على دمو. ودخلت وما إن رأيته قال لي: إجلس أريد أن أكلّمك بموضوع مهم للغاية.

وبعد ثلاث ساعات من الأخذ والرد في سياسة الدول والشعوب، فهمت أنه لم يجد هذا الصباح موقفًا لسيارته.

إنما كان علي أن أناقش سياسة الدول والوضع الاقتصادي في العالم وأزمة النفط ومشاكل شعوب العالم الثّالث لكي أفهم أنه... صبرك يا أيوب.

كنت أقول في نفسي تبا لك مِن أحمق، لا بل سحقًا لك من مجنون لا تنتحر وتنهي وتنتهي من جميع هذه المشاكل التي أنت وحدك سببها الجوهري.

وفي المساء حضرت عندي امرأة تريد استشارتي في موضوع عائلي مهم وخطير للغاية. موضوع عن علاقتها الزوجية. وبعد ساعتين من الجدل الرهيب، فهمت أنّ زوجها يريد فسخ زواجه منها لأنه لا يحبذ استعمالها لمسحوق الغسيل المعتادة على استعماله، بل يفضل نوعا آخر. لا مشكلة حتى الآن، أليس كذلك؟ المشكلة تكمن في أنها جاءت لتقنعني بأنّ المسحوق الذي تستعمله هي، هو الأفضل.

فلمن تقرع الأجراس؟ ومضى قطار العمر؟ ولا تبكي يا حبيب العمر!

فما لي أنا، وما هو شأني في كلّ ذلك؟ إنتظر لا تيأس، الحديث في أوله؟

صعدت في آخر الليل إلى غرفتي، وإذا بالهاتف يرنّ، أخذت السماعة وإذا بأمي تتصل من بعيد للاطمئنان عن أحوالي. لقد تجاسرت المظلومة وسألتني: كيف حالك يا ولدي؟

ما لك وحالي إني بأحسن حالاتي ألا تفهمين بأني سعيد جدا وبصحة جيدة؟ لماذا ترهقين نفسك بالسؤال عني، وتبذّرين المال للاتصال بي؟ إنها أموري الخاصة ولا أسمح لك بالتدخل في حياتي.

لم ترد علي جوابا.

وكانت تلك ليلة خالية من البرغش.

وفي الصباح جاءني اتصال من أخي يخبرني بأنّ أمي قد أُدخلت ليلة أمس المستشفى على أثر ارتفاع مفاجئ في ضغط الدم.

هل أنا مذنب؟ يا الله لقد قتلت أمي بقسوتي وجنوني!

ما العمل الآن؟

لا، لا لست مذنبا! من طلب منها الاتصال؟ ولماذا تسألني عن حالي؟ ألم تسمع البارحة نشرة الأخبار لتعرف أوضاع أوغنده المأساوية، ألم تنتبه للنشرة الاقتصادية والحالة العامة في العالم أجمع؟ لا، لا وألف لا، إنه ذنبها، فلتتحمله حتى النهاية.

أين أنت؟ انزل سريعا! إنه صوت رب العمل. هلم حالاً لقد تعطّل قفل باب المرحـاض وعليـك إصلاح الأمر بسرعة.

كان الطقس حارا جدا، وكان العرق يتصبب من وجهي وظهري وصدري. وبينما كنـت أهـتم بتصليح الباب، وصل رفيق لي لم أره منذ عشر سنوات. وصل ليخبرني بأنّ والده قد توفّي وبأنه يحتـاج إلى إنسان يعزيه. لقد اختارني أنا. اختيار رائع. كم أنا مهم.

جلس على كرسي المرحاض يكلّمني، بينما أنا لا أزال أصلح قفل الباب. وكان فنجان القهوة، على الريحة، لذيذًا جدا في المرحاض. وبين الرشفة الأولى والثّانية إذا بموظّف الاستعلامات يناديني لأجيب على الهاتف. إنه البريد، ويجب علي الانطلاق فورا لإحضار برقية مهمة لرب العمل. فتركت أدوات العمـل في المرحاض واصطحبت معي رفيقي في السيارة لإحضار البرقية.

أعرف يا صديقي بأني أثقّل عليك وأزيد همومك. قال صديقي بينما كنا في الطريق. وأنا من صميم قلبي أجبته: لا يا حبيبي، فالصديق وقت الضيق، قل لي كيف أستطيع مساعدتك؟ وتحدثنا قلـيلاً أثنـاء الطريق.

وعند عودتي أعطيت البرقية لرب العمل وعدت إلى مرحاضي للعمل. في غضون ذلك، تركني رفيقي بعد أن ودعني.

والآن هل تشعر بالشفقة نحوي؟ ها ها ها.

أنت مجنون حتما؟ مجنون إذا أجبت نعم ومجنون إذا أجبت لا؟ مجنون أنت في جميع الأحوال.

سأشرح لك لماذا.

إنها كلمة واحدة. إنّ كلّ ما قرأته حتى الآن، ليس أنا ولست أنا! لأنّ كلّ ذلك لا علاقة له بي ولا يمت بأي صلة نحو شخصي الكريم، اللهم سوى عواطفي نحو أمي وصديقي وهي صادقة.

فما هو هدفي في الحياة؟ أو أي هدف لحياتي؟ هل تعلم؟

من منا لا يحتاج إلى صديق حنون يسمعه ويخفّف عنه همومه؟ ولكن ما هي همومي؟

هل هي مشاكل أوغنده، أم الوضع الاقتصادي في العالم، أم مسحوق الغسيل، أم مرض أمي، أم باب المرحاض؟ أو؟ أو؟

عندما ألتقي بك يا صديقي الحنون عن أي أمر تريدني أن أكلّمك لكي أبقى مهما في نظرك؟

هل سمعت آخر نكتة: كان في واحد حب فطحنوه. ها ها ها.

سخيف جدا، والأسخف منه أنك عندما تريد أن تقول شيئًا شيقًا ومعبرا لحبيبـك، تضـيع منـك الكلمات.

وتقول لي: أنت حقا غريب الأطوار. أنت تغيرت، لم أكن أعرف بأنك مملّ إلى هذه الدرجة. فهـل تغيرت حقا، أم إنّ نظرتك إليّ هي التي تغيرت؟

وتسألني أين كنت ليلة أمس، لقد اتصلت بك فلم أجدك؟ فأجيبك: كنت في غرفتي. لا، كنـت في بيت فلان، لا، كنت في المكتب أعمل، لا...

وكلّها أجوبة كاذبة وإن كانت صادقة. فأنا لا أعرف أين كنت.

انتظر لحظة أرجوك.كنت هاربا. من أي شيء؟ لا أعرف.

وأعود معك إلى هدفي في الحياة؟

هدفي هو العطاء، وأن يكون جميع الناس سعداء، هدفي أن أكون إنسانيا حقيقة ومسـيحيا بالفعـل ومؤمنا إيمانا ثابتا.

وكيف السبيل إلى ذلك؟ إنه بالعمل بصمت وحب وبالصلاة والخدمة.

كنت في الكنيسة راكعا أصلّي، وكنت أردد بإلحاح: "**خطايا شبابي وجهالاتي لا تذكرها يا رب، بل بحسب رحمتك اذكرني من أجل جودتك**"[٢].

وإذا بأحدهم يدخل الكنيسة ويتوجه نحوي بالصراخ: أنت هنا ولي أكثر من ساعة أبحث عنك!

أجبته بهدوء وبصفاء ما قبل العاصفة: قل لي ماذا تريد؟

ابن الكلب وابن العاهرة، أخذ مني مبلغا كبيرا من المال لتصليح سيارتي وهي الآن مـن جديـد لا تعمل. أهذا هو صديقك الذي تعرفه ويخدمك؟ لماذا أرسلتني لأصلح السيارة عنده؟ إنه ذنبك.

ما هو شعوري الآن برأيك؟ ولو كنت مكاني ماذا؟

كان الطعام مالحًا جدا على الغداء والفاكهة بدون غسيل.

وأتت فتاة نصف عارية تكلّمني مطولاً عن شباب اليوم وتصرفاتهم غير الأخلاقية.

وكنت نائما في غرفتي عندما وصل غاضبا وأيقظني بقوة ليقول: قتل أحدهم البطّة وأنت تنـام هنـا براحة وهدوء، لماذا أنت لا تبالي بشيء؟

وفي اليوم الثّاني. ذبح بطتين ليستضيف على الغداء معارف له.

وبعد غد جاءه من يخبره بأنّ الغداء لم يعجب معارفه.

فأتى إليّ وقال: انظر كم هم بدون تهذيب ولا أخلاق.

دقّت الآن الساعة الثّانية فجرا، إني أسمعك تهمس في أذني قائلاً: لا ترهق نفسك، لماذا أنت عصـبي المزاج؟ ستقتل نفسك. إني بحاجة إليك. أنت صديقي الوحيد وأنا أحبك حـتى المـوت ولا أريـد أن أفقدك.

فأجيبك: وأنا أيضا بحاجة إليك لتخبرني غدا من جديد عن مشاكل أوغنده والحـرب الاقتصـادية والبطّة التي ماتت وقفل باب المرحاض، و... و...

[٢] مزمور ٢٤ (٢٥): ٧-٨.

إني أحبك أينما كنت وكيفما كنت يا أخي الإنسان. إني مقصر جدا في خدمتي لك ومحبتي. لقـد كنت أنانيا عندما لم أكترث لمشاكلك، وعندما غضبت منك وصرخت في وجهك وكـذبت عليـك وظننت بك السوء وافتريت عليك.

إذا كنت قد خلقت فلأنك بحاجة إليّ. سامحني أرجوك لم أكن أهلاً للثّقة.

إني مجرم في ملكوت السماوات.

قصتي مع الصندوق

ميراي

"**ما** بين **القديم والجديد، ما** بين **البداية والنهاية، هناك قصة تسير أحداثها من واقع إلى آخر، ومن واقع إلى خيال، ومن حقيقة إلى وهم**".

وإليك بذلك الواقع، أو الخيال أو الوهم. لا أدري!

حزمت حقائبي ومشيت منطلقة إلى جبال وسهول وغابات ومباني وأديرة ومنازل وأبواب ذلك العالم القديم قدم الزمان، إلى ذلك العالم الغريب والغامض والشيق والعنيف والجميل في آن، إلى ذلك العـالم الذي احتوى حروبا كثيرة ومديدة، وانتصارات واكتشفات عظيمة، ومكتبات وجامعات ومـدارس، ورحلات واغترابات فريدة من نوعها، وبسمات وخلافات لا تحصى، وتأملات وصلوات طويلة. وبعد طول سفر وجدتني أمام كهف يطلّ على عالم آخر يشبه عالم الأشباح. فمددت رأسي الصغير الحجم، وأمعنت النظر، ثمّ أمعنت أكثر فأكثر. وبعدها أدرت مسمعي لعلّي بنصفه وبنصف نظري أفهـم ولـو لبرهة ما في ماضي وحاضر ومستقبل ذاك العالم-الكهف من خفايا. المشهد مهول والمكان قفر ومدلهم، وعلى الرغم من ذلك لم أخف، بل تجرأت ودخلت وتابعت سيري بخطى ثابتة طورا ومترددة أطـوارا، بخطى فيها من السرعة والإبطاء الشيء الكثير، ومن الانكماش والجرأة كلّ ال لا منطق. وإذ بي أقـف عارية أمام ذاتي، أقف ما بين دمعة الذهول ولهفة من يريد أن يروي غليله المعرفي. شيء سرقني لبرهـة ومنعني عن المضي قدما، إلاّ أنّ إصراري كان أقوى من أي شيء آخر، فأكملت الطريق نحو الغاية التي كنت أنشد، إلى أن تعثّرت قدمي بصندوق خشبي قابع في زاوية قرب قبر قديم داخل الكهف. واقتربت كمن يقترب من حتفه، أو كمن يقترب من مذبح الرب ليقول: نعم، وانحنيت لأكتشف ما في داخـل هذا الصندوق، وإذ بكتابة تسترعي انتباهي، كتابة محفورة على مقدمة الصندوق وقد أوشكت حروفها أن تختفي من شدة القِدم. حدقت وحاولت فك الرموز فإذ بي أقرأ: من الشيخ المصري. وبمحاذاة تلـك العبارة تربع رسم لأرزة فسمرني مشهد الأرزة المرافق للشيخ المصري. وكلّمت نفسي قائلة: غريب أمر هذا الصندوق. أأفتحه؟ أتراه ملك من؟ هل هو لسلطان أو لأمير من سابق العصر والأوان؟ وما يحوي يا ترى؟ لا بد من أنه كنـز.

وتجرأت ومددت يدي، كما مدت حواء يداها لتأخذ التفاحة من إبليس، تجرأت وتجاسرت وكـأني أمام إغواء الخطيئة وإغرائها الذي إذا استفحل لهيبه لا نعود نقوى على إخماده. وأخيرا، فعلـت، نعـم، أقدمت على فعلتي المذمومة. وإذ بالمفاجأة غير المتوقّعة ترمي بكلّ تساؤلاتي وشكوكي أرضـا وتحـول شهوة الفضول وخطيئة الإغراء إلى موقف ساذج إذا دلّ على شيء فهو إنما يدلّ حتما على أني لا أزال

طفلة، فالصندوق مقفل، ومقفل بإحكام، ولا أمل عندي... هيا يا فتاة امضي في سبيلك فالطريق غير سالكة. هذا ما قلته لنفسي.

وما أنّ هممت بالعودة حتى حضرتني أشباح تلك المقبرة المظلمة خالعة وشاحها الأسـود صـارخة وقائلة: عودي أدراجك. أما أنا، فبين الرعب والخوف والدهشة والذهول، وجميع أفعال وصفات الهلـع والقشعريرة، كان نصيبي الإغماء وكأنني بتلك الأشباح تريدني أن أبقى في ذلك الكهف المظلم حيـث يقبع خالدا ذلك الصندوق حاوي الخفايا التي قد تلخص تاريخ ذاك العالم-الكهف الذي تجرأت وعبرته.

ومر وقت، لا أعرف مقداره، فرأيتني أستيقظُ وانطلق مهرولة وتاركة كلّ شيء. ولشـدة سـرعتي تعثّرت قدمي اليسرى، علامة الشؤم، فسقطت على الأرض، وكان سقوطي ربما من صنع آلهة ذلـك العالم-الكهف، وإذ بيدي تقع مفتاح يشبه بقدمِه الفلسفة اليونانية. لممته بلمحة بصر، وبدون أن أفكّـر البتة عدت القهقرى واقتربت بنفس الوتيرة السابقة وانحنيت من جديد، ويا للأسف فالمفتاح لا يجـدي نفعا. عندها لم يكن بوسعي سوى أن أحمل الصندوق على كتفي. نعم، أن أسرقه وأخرج مـن هـذا العالم.

أترى ما كان هذا؟ هل كان واقعا أو خيالاً أو ربما وهم؟

المحاكمة

من مكاريوس إلى إبراهيم حداد

هل صادفت يوما رجلاً يبكي في مكان عمومي؟

كان ذلك يوم السبت، كنت جالسا مع صديق لي في مكان ما من هذا العالم، وفجأة... بينما كنا نحتسي زجاجة البيرة العاشرة، صعقني بجملته المحترقة:يا صديقي نحن أصغر من أن تكون لنا ذكريات.

ذكريات عن أي شيء؟ عن الطفولة أو الماضي أو المراهقة أم الشباب؟

لم تقل شيئًا، بل أجمعت وصممت على تركي وهجري ونسياني.

تسعون يوما دامت محاكمتي. وفي آخر الأمر حكمت المحكمة علي بالطواف في البر والبحر والجو.

فلماذا هذه القسوة يا حبيبتي؟

كلاّ، إنها ليست بقسوة، بل هي إعجاز في التدمير والتحطيم. إنه حكم بالعبثية والفوضى والهذيان.

من اليوم فصاعدا بعرقك البارد المتصبب من وجهك تأكل نفسك وتهيم على وجه الغمر كالريح الهوجاء التي لا تعرف من أين انطلقت والى أين تتجه والهدف الذي ستدمر.

لقد أحببتك من النظرة الأولى واتخذتك شريكة لحياتي وشاطرتك الأفراح والأحزان. لم أكن أرجو منك شيئًا سوى أن تبقي مبتسمة لكي أبقى لك ينبوعا يدفق بالعطاء والحب والعمل والبذل والاجتهاد.

أخذتك الأيام بعيدا، كنتِ ساذجة نقية وبسيطة، عطوفة محبة وباسمة فأعادتك إليّ شاحبة الوجه ملطّخة اليدين بدم رجالك الفساق وأصحابك الأشرار الذين... فأنجبتِ منهم أبناء أشقياء حبلتِ بهم وولدتهم خلال فترة غيابي، وأنا كنت هناك في الأفق البعيد أعد لك نفسي.

يا صاح... أين نحن؟ إنها الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. يجب علينا العودة إلى البيت. هكذا أيقظني بغتة صديقي من سباتي العميق. ولكن أين كان هو خلال أربع ساعات من الوقت ما بين جملته التي صعقتني وهذا النداء الأخير؟

ألم يشعر برطوبة الجبل؟ ألم يشعر بضجيج إقفال المحلّ وإطفاء الأنوار؟ لقد بقينا وحدنا على عتبة المكان.

هل تستطيع القيادة؟ قلت له، فأجابني: عمرك أطول من عمري. كنت سأسألك السؤال عينه.

لننتظر قليلاً ريثما نصحو من سكرتنا المزدوجة.

آه، لقد أحرقت إصبعي. أين هو صديقي؟ كيف وصلت الى البيت، ومن أشعل النار ووضع إبريق القهوة عليها؟ هل أنا في حلم أم في علم؟

يجب أن أدخن. أين علبة السجائر؟ إنها في المكتب.

عظيم، عظيم، منذ متى وأنت تدخن؟ وماذا تفعل عندك في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

التفت إلى ورائي، وإذ بي أرى وأكاد لا أبصر. إنه أبي.

اذهب سريعا إلى غرفتك وغدا نتكلّم، هذا على ما أذكر ما قاله لي والدي.

وإذ بصياح الديك الجبان ليذكّرني بأني لا أزال حيا أُرزق.

حسنا، لدي عمل كثير يجب إنهاؤه يوم غد. يا الله، أعطيني نوما.

ما هو عمر الإنسان على الأرض؟ لماذا حرمني الله من أشياء كثيرة؟ لماذا أفقد سعادتي ونشوة فرحي يوما بعد يوم؟ لماذا لم تعد ترى البراءة في عيني؟ لماذا يموت الأبرياء؟ لماذا يهجر الخلّ خليله؟

ألا تفهم يا إلهي أني أريد النوم؟ الآن يجب أن استلقي. تعالي يا أمي واهمسي في أذني: نام نام لدبحلك طير الحمام.

طن، طن، طن، الساعة السادسة صباحا. أسعدتم صباحا إليكم العرض الأول للأخبار.

خلعت ثيابي وذهبت لأخذ حمام ماء بارد، عساني أعرف ماذا يجري من حـولي. ولحسـن الحـظّ انقطعت المياه ولحقها التيار الكهربائي.

اللعنة على هذه الحياة.

سيدي الرئيس، بعد الاضطلاع على كلّ تفاصيل الدعوة، وبعد كلّ التحقيقات والتحريات، وبحسب شهادات الشهود، أطالب محكمتكم الموقّرة بتجريم المتهم:

أولاً: بتحريض نفسه على الانتحار.

ثانيا: بالتخطيط الدقيق والمفصل للجريمة الشنيعة والبشعة.

ثالثًا: إنزال أقصى العقوبة به، ليكون عبرة لمن يعتبر ولردع سواه.

محام الدفاع، تفضل:

سيدي الرئيس، أرى من الواجب والعدل أن تعيد محكمتكم الموقّرة النظر في الدوافع والأسباب الـتي ضغطت على موكّلي للتحريض والتخطيط للجريمة، وتخفيف العقوبة إلى أقصى درجة. وشكرا سـيدي الرئيس..

محكمة

باسم الشعب، وبالأكثرية وبعد التدقيق، قررت المحكمة ما يلي:

أولاً: إدانة المتهم بجريمة التحريض والتخطيط للانتحار.

ثانيا: الحكم عليه بالاستمرار في الحياة.

قرارا وجاهيا قابلاً للطعن عن طريق النقد، صدر وأُفهم علنا.

لا، لا، أرجوكم، لا، إني بريء.

فتحت عيني ونظرت من حولي والخوف يكاد يقتلني، وإذ بي نائم عاريا على الأرض. إنها السـاعة العاشرة صباحا.

نهضت سريعا وأخذت دفتر هواتفي وبدأت بالاتصال بصديقي الذي كنت ساهرا معه ليلة أمـس. وبعد أن أنهيت عشرات من المكالمات الهاتفية. اكتشفت بأني لم أكن مع أحد من جميع أصدقائي.

كان ذاك صديق من عالم آخر.

كان ذاك، صديق العشارين والخطأة والعواهر.

الآن عرفته وهو الذي حكم علي بالحياة.

أما حبيبتي التي انفضح فسقها وخداعها وغشها فكانت ذاكرتي.

الآن فهمت ماذا تعني كلمته إننا لا نزال صغارا لتكون عندنا ذكريات.

وتعني أنّ الخلّ يهجر خليله، لتعرف ذاكرته قيمة الصداقة الحقيقية التي ليست من هذا العالم.

ويموت البريء لئلاّ تلطّخ العيوب ذاكرته. وإنّ البراءة في العينين، ليست سوى ذكرى أيـام الطفولـة الصافية التي تعطي قيمة لحياة الإنسان. وإنّ سعادتي وفرحي إنما هي في تذكّري لما منحـت ووهبـت وأُعطيت مجانا. وإنّ ما حرمني منه الله ليس سوى مصدر لا بل مصادر أنانيتي. وإنّ عمر الإنسان علـى الأرض ليس سوى تذكّر الحب الأول الذي بادر إليّ من بعيد من خلال محبة الناس لي واحتمالهم لجميع عيوبي ونواقصي وشروري. وإن كان قد حكم علي بالحياة، فلكي أتعلّم أن أجدك أيها الآخر، فنجلس لنشرب زجاجة البيرة ونتذكّر أننا وإن كنا لا نزال صغارا إلاّ أنّ قلوبنا مفعمة بالحب.

حكمت المحكمة حضوريا علي بحبك، وعليك بحبي.

الجزء المظلم من وجهك

ميراي ومكاربوس

التقينا، ونكاد نشك بحتمية ذلك، صغيرين على الرغم من فارق بالسن ناهز العشرين ونيف.

والتقينا كما لا يمكن أن يلتقي أحد. التقينا كعابري سبيل أو ربما كمن فُرض عليهما أن يلتقيـا في عمل أو من أجل مصلحة، أو ربما كرفاق الصف في المدرسة، أو كجيران في مبنى، أو حتى كمسافرين في القطار أو على متن سفينة. ولكن التقينا. ودام اللقاء أسابيع وأشهرا كنا خلالها كالزيت فوق الماء في التحام وانفصال في آنٍ معا.

وبدأ يقتحم، فجأةً، من دون سبق موعد، وبدون إنذار بريدي يمهد الطريق أمام باقتحامه، وبـدون حتى إنذار بإخلاء بيت، أو بتسديد فاتورة. وكم كان اقتحامه مخيفًا وهو الظاهر صغيرا تـارة وكـبيرا أخرى، والمتصاغر حينا والمتكابر أحيانا. وهو فيه الذي قد اجتمعت جميع الصفات التي تجعلك تعـد لا إلى العشرة وحسب، بل إلى ما تعجز الحواسيب عن عده قبل أن تستبيح لنفسك أن تمد يدها وتصافحه.

متناقض في كلّ شيء، في شكله، وكلامه، وأساليب تعبيره، والتعبير عن مشاعره، وحتى في مشيته، وضحكته وانفعالاته، ودموعه التي تكاد في كلّ مرة تريك جسمه يتلون بلون أحاسيسه وانفعالاته.

واقتحمني...

هالني وقع الاصطدام، أنا الصغيرة المتكابرة، فسبقتني ردات فعلي بطريقة كدت معها أشك بوجـود عقلي، فهل اسحب يدي؟ أم أغلّف ضعفي بأوراقٍ من بولاد أم أغض الطرف عنه؟ ولكـن لم يكـن باستطاعتي أن أنسحب. وإذ بتلك الرافعة العملاقة تنـزلق نحوي بسرعة فائقة، لم أكن أدري ولا أتوقّع ما الذي كان سيحدث، وإذ بحبال تلك الرافعة تكبلني من كتفي إلى أخمص قدمي، فلم أجد نفسـي إلاّ في الهواء معلّقة والصوت مني يكاد يكون صراخ استغاثةٍ أو عويل هلع، أو ربما الاثنين معا.

واقتحمني...

وخبطني فجأة فهبطت إلى أسف، وإذ بي في وكري، في عشي، في صومعتي، في حميميتي، في عـالمي المطلق الذي طالما عشقت، وفي سريري حيث أبني أحلامي وأهدمها، وأرسم صوري وأمزقها وأُدخـل هذا إلى عرش صدري، وأطرد تلك الصور حيث فارس أحلامي المستقبلي موجود وأولادي مسبقًا معي، لا بل وأحفاد أولادي.

في هذا القصر المرصع بزمردات أفكاري استلقيت تلك اللّيلة.

أي مغامرة يبغيها ذاك الذي من بعد الاقتحام والغرام المجنون لسنين، رأيت وجهه وجها آخـر بـين رفوف الكتب وهالني ذاك الوجه بعد طول عِشرةٍ بأفظع ما هالتني تلك الرافعة في البدء. وانسبت تحـت اللحاف أفتش عن كلمة سر أفتح فيها ذاك الملف قبل أن أقـر إذا كنـت سأستسـلم للاقتحـام أو سأسترسل.

وفي الخارج، كانت الضوضاء تعميني فذاك الذي طالما ارتبط اسمه بالصحراء، كان قد سبق ودمـرني. وعندما كان لحافي قد عجز عن استيعاب قطرات دموعي، قلت في نفسي: فلترفعني تلك الرافعة، لربمـا أنستني واقع الأرض وما ومن عليها. وعزمت على العودة إليه بجبروت، وأخذت وقتي لكي أعـد العـدة لقمعه، كان ذلك أقلّ شيء ممكن أن أفعله.

شهرين دام تحضيري. كان قد سئم من الاقتحام. وعلى تلك الطريق حاول جاهدا بكلّ الأساليب أن يلملم دمعتي ويشربها. وعندما رأيت شدة قيظه، قررت أن أسقيه ما سقاه الجنود الرومان لرب الأكـوان ودفعت في وجهه دفعا تلك الكأس التي طالما مرمرت داخلي، كأس نصف الصمت ونصـف السـماع، قذفتها قذفًا وقلت له: اهنأ بكأس طالما أنك أدمنت احتساء الهموم وأقاصيص الأطفال.

وبكى واسبطر قافلاً، حتى خلت أنه لن يعود.

هنا بدأت قصتي مع العملاق المجنون والمارد.

وسرقني النوم تلك الليلة لأصحو على اقتحام من نوع آخر أنا التي لطالما هربت مـن سـراب اسـم الصحراء. وإذ به يرشقني في الغد رشقًا مبرحا بإحدى ضحاياه. كنت حينها ما بين الإعجاب والنفـور منها على مفترق طرق.

أوجعتني... أحبها... أنفر منها... لا تناسبني... وبحرا من الأسئلة بدون جواب لكني خلتها مفتـاح السر لذلك الملف.

وقيدت الدعوى ضد مجهول

بمناسبة وفاة المرحومة كريستينا شتوي

لماذا يا ترى تصر الحقيقة على الاختباء خلف السطور والكلمات؟

وأنا لن أحتاج إليك لكي أعرف بأنّ الشمس تشرق كلّ صباح وبأنها تغيب كلّ مساء.

همست في أذنها قبل الرحيل وقلت لها: عما قريب ستكونين بقربه هو فوق، أريدك أن تسأليه لماذا كلّ هذا الظلم هنا أسفل؟ ماذا يريد مني أنا بالذات؟

كان هذا أول أمس.

واليوم، انفجرت بالبكاء رغما عني، أمام عيون جميع الناس. لقد رحلت بهدوء وسكون. وربما يقول بعضهم كم كان يحبها ليبكيها كلّ هذا البكاء؟

إنها الحقيقة. لقد أحببتها حبا لا حدود له بدون أن أعرفها وأن أعرف شيئًا عن ماضيها. التقيت بها منذ سنتين وكانت صامتة دائمة الابتسامة فقط. عاشت وحيدة وماتت وحيدة ومع ذلك كانت رائعة رغم السبعين سنة التي هربت منها مسرعة.

رحلت حاملة سؤالي وتساؤلي، وهذا ما أبكاني بالأكثر. رحلت ورحل حبها لي.

وإني متأكّد بأنّ لهذا الحب صدى في السماء، حيث تستطيع أن تقول: كان يحبني من كلّ قلبه، ولم يتركني في أيام محنتي.

ويبقى السؤال هل ستتذكّر سؤالي متى وصلت إلى السماء؟ وهل سترد علي جوابا؟

أعرف بأنّ لا أحد من الموتى يعود ليخبرنا عما رأى وسمع في العلى.

يقرع الجرس في الخارج، وعربة الموتى تنتظر تنزيل النعش.

وداعا أيتها الغالية، لقد أحببتك من كلّ قلبي، ولكن ها أنا الآن أقف للصلاة على جثمانك المؤقّر الذي اتشح بنعمة الحياة والحب، وأعرف بأنّ صلاتي لن تضاهي أبدا صلاتك التي تقدمينها اليوم لله مصحوبة بصلوات بصفوف الملائكة.

وعلى شرفة المنزل وفي الدار وعلى سلّم البناية، وفي كلّ مكان تجمع الأهل والأقارب والمعارف والأصدقاء. والغريب أنّ جميعهم يأبون الاحتفاظ بفلسفتهم الحمقاء عن الموت:كلّنا عا هـا الطريق. ارتاحت. لا يأخذ أحد سوى أعماله. سبحان الدايم.

وبعد ذلك، ماذا؟ يبدأ الحديث عن أي شيء لمجرد الكلام عن أي شيء.

الجميع ملتحفون بالسواد، والله يعلم ماذا يخبئون وراء السواد. مثلهم مثل كثيرين من ذوي الثياب السوداء حيث خلف الستار الأسود برد قارص شديد.

وفي هذه الليلة بالذات، حصلت الجريمة الكبرى. فبعد انقطاع التيار الكهربائي، وقد كـان الظـلام دامسا ولا أحد في المنـزل. نام عقله وبدأ قلبه ينبض بسرعة رهيبة وتأججت عاطفته، ولاح له في الأفق طيف من أمس واليوم، طيف لن يكون غدا. فأستلّ حربته وغمسها في صدره.

وفجأة، توقّف كلّ شيء وبرد الجسم المشتمل على الحب والحنان.

كانت تلك الحربة من كلام قاس وجارح. فلماذا صعدت القطار طالما أنك لا تملك المـال الكـافي للبطاقة؟ لماذا أشعلت القنديل طالما أنّ الزيت لا يكفي لليوم وغد؟ لماذا سلكت تلك الطريق المهجورة؟ لماذا شربت كثيرا وأنت تعرف بأنّ الكحول يضرك، ولماذا، ولماذا؟

ستقول إنك لا تعرف لماذا! إني أصدقك تماما.

ولمن هذه الثياب الداخلية ملقاة على الأرض؟ ومن هي تلك الفتاة التي تعرت أمامك ونامت على سريرك؟

كفى توقّف عند هذا الحد؟

وكانت هذه آخر كلمة نطق بها قبل أن يموت.

في الغد باكرا جدا، وقبل شروق الشمس، كانت الضجة الكبرى. وصلت سيارات الإسعاف وحضر المحقّقون للبحث والتفتيش عن الجريمة والمجرم.

الجميع بدون استثناء، كل يطلب تفسيرا.

وبعد تحقيق دقيق وأخذ ورد، استطاع المفتش معرفة صاحبة الثياب الداخلية، إنها ثيابها؟ ألم أقل لك أيها المحقّق إنها أصبحت معروفة منا جميعا. كنت أخشى من ذلك فعلاً، والآن فلا سبيل لنـا بعـد أن عرفنا الفتاة من متابعة البصمات لمعرفة القاتل.

أرجوك أيها المفتش أخبرنا من هي الفتاة؟ صاح والد المغدور.

تنهد المفتش وقال: إنها الثقة! كانت دائما وستبقى أهم عنصر في كلّ جريمة.

فقد كان يعاشرها مثله مثل غيره وأحبها كثيرا، كانت جزءًا من حياته إن لم نقل ذاتـه كلّهـا. وفي الأمس خلعت ثيابها أمامه ومضت، وهذا ما تفعله عادة بأغلب الشبان والشابات. لقد فقد ابنكم ثقتـه بنفسه وبالعالم الذي يعيش فيه.

دعنا من ذلك الآن، وأبحث عن القاتل؟

مضت ساعتان من الوقت!

حضرة المحقّق، أراني مضطرا إلى أن أكشف لك الآن، كما في كلّ مرة، عن ظنوني التي لا تخيب أبدا، فالقاتل هو نفسه.

ماذا؟ أجاب المحقّق بدهشة. فأردف المفتش نعم إنه الاختيار. لقد عثرنا في غرفة المغدور على أوراق مذكّراته، وقرأنا أسطرا يتكلّم فيها عن موت امرأة كان يحبها، وعن أسئلة طرحها عليها لتحملها معهـا إلى السماء.

فهل تشك في أنّ القاتل المحترف هو الاختيار؟ سأشرح لك الأمر. قال المفتش.

أن تختار العيش مع إنسان لم يعرف ولا يعرف أن يختارك لأنّ العاهرة قد خلعت ثيابها في غرفـة نومـه وتركته وحيدا. أن تختار حبا فتكتشف أنه كان سرابا. أن تختار صديقًا فإذا به غير أهل لصداقتك. أن تختار بيتا فيصبح خربة. أن تختار مهنة فتأسرك وتكبل يديك. أن تختار ثوبا فلا يناسبك. أن تختار نهارا فيمسـي غروبا. أن تختار وأن تختار... أن تختار غدا فيظهر أمسا. أن تركب قطارا متجها إلى ... فيقودك إلى ...

هذا هو المجرم المحترف الذي قتل مئات من الشبان والشابات. إنه الاختيار. مجرم فار مـن العدالـة متلبس ومتخفٍ فمن يستطيع الإمساك به؟

وفي الغد كتبت الصحف ونشرت الإذاعات الخبر: في الصفحة الأولى: قتل الاختيـار شـابا يافعـا ووجدت في غرفته ثياب داخلية لفتاة تدعى الثقة. الرجاء ممن يعرف شيئًا عن القاتل أو الفتاة، الاتصال بأقرب مركز للشرطة.

وعلّق الصحفيون على الجريمة بقولهم: أيها الشباب اتعظوا بكلام المعلّم المتنبي:

بِم التعللُ ولا أهلٌ ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن
أُريد مِن زمني ذا أنْ يبلغني ما ليس يبلُغه من نفسِه الزمن
لا تلق دهرك إلاّ غير مكترثٍ ما دام يصحب فيه روحك البدنُ
فما يدوم سرور ما سرِرت به ولا يرد عليك الفائِت الحَزنُ
فما أضر بأهل العِشقِ أنهم هووا وما عرفوا الدنيا وما فطِنوا
تفنى عيونهم دمعا وأنفسهم في إثرِ كل قبيحٍ وجهه حسن
تحملوا حملَتكُم كل ناجيةٍ فكل بينٍ علي اليوم مؤتمن
ما في هوادِجِكُم مِن مهجتي عوض إنْ مت شوقًا ولا فيها ثَمن
يا من نعيت على بعدٍ بمجلِسِه كل ِبما زعم الناعونَ مرتهن
كم قُتلت وكم قدِمت عندكُم ثمّ انتفضت فزالَ القبر والكفَن
قد كان شاهد دفني قبلَ قولِهم جماعةٌ ثمّ ماتوا قبلَ ما دفِنوا
ما كل ما يتمنى المرءُ يدرِكُه تجري الرياح ِبما لا تشتهي السفن

...

إني أُصاحِب حلُمي وهي بي كرم ولا أُصاحب حلُمي وهو بي جبن
ولا أُقيم على مالٍ أُذل به ولا ألذ ِبما عرضي ِبه درنُ
سهرت بعد رحيلي وحشةٌ لكُم ثمّ استمر مريري وارعوى الوسن
وإن بوليت بود مثل ودكُم فإنني بفراقٍ مثِله قمِن[٣]

وقيدت الدعوى ضد مجهول.

[٣] الموسوعة الشعرية المعتمدة من المجمع الثقافي للشعر العربي الأصيل. قرص مضغوط، الإصدار ١، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

وصدق... ومن يقولها؟

ميراي ومكاريوس

وصدق... تأكيد يفترض بمن يتفوه به أن يكون، أقلّه، موسوعة أدبية، أو دائرة معارف فلسفية وأدبية ولغوية ووجودية، ويفترض أيضا أن يكون قد تجاوز من العمر العقد الرابع، أقلّه طبعا.

والواو (وصدق) هنا لوصل الجملة المطمورة والمضمورة في مدعية علما ومعرفـة، والمتطفّلـة علـى الأفعال في الجمل والوجدان في القبر.

وقبل أن تضجر مقدمتي، والواو، هنا أيضا، افتراضية اعتراضية لوصل ما سبقها، أُريح رأسك من فعل "صدق" أو "كذب" لأقول: برأيي المتواضع صدق نبي لبنان عندما قال، في وصـفه المناسـب لعمـق الوجدان البشري: "**من يدري إذا** لم **تكن الجنازة** بين **الناس، عرسًا** بين **الملائكة؟**"[٤].

أمام النعش المسجى وقفت (وقفت) والضوضاء من حولها ما بين بكاء ودمع ونحيب وألم، وسـقط السؤال، وهل تسقط الأسئلة؟ وسقط السؤال من فكرها إلى كبدها، وغاب لبرهـة صـوت عقـارب الساعة المسجاة هي الأخرى على جدار الكنيسة، وبين تلك المسجاة وعقارب الساعة صـمت يهـز الكيان.

وصدق... كتبت، على لوح ذاكرتها، تلك التي تعشقت نفسها الصلاة، كتبت ، بالصورة والكلمة، منشدة نحو تلك التي لم تفارق يوما ابتسامتها وجهها الملائكي. وعبر سيل الوقت كانت بـين الـنعش والكبد تنسج خيوطًا كأني بها أربطة تربط الأزلية بالزمن، خيوطًا ستربط بين فلسفة فريديريك وتأملات جبران، وكلاهما من أنبياء القرن التاسع عشر.

وكانت العظة التأبينية من كلمات تلك المسجاة، وكانت عظة غير منتظرة ولا متوقّعة. فمن كـان يدري بأنّ هذه النبية المسجاة في نعش قد سبقت، كجبران وخطّت بأنامل طالما أرجفها المرض: "**وكان المساء، وشعرت بأنّ شيئًا سيحدث، وإذ بيسوع... وكان الصباح ورأيت النور**"[٥].

نعم، وكان الصباح، صباح الخامس عشر من شهر آب للسنة الثّامنة من الألف الثّالث، وهو اليـوم رقم ٦٣٣٠ لولادتي ، على وجه التقريب، وما هي سبعة عشر سنة ونيف في عمر الشعوب[٦].

وكان الصباح، صباح اقتلعني من جذوري وجعلني أتخطّى جميع الحدود حتى أوشكت أن أشبه تلك المسجاة.

---

[٤] جبران خليل جبران، **مؤلفات**، المجموعة الثّانية، مكتبة صادر-دار جبران، بيروت-لبنان، ١٩٨١. صفحة ٣٨ (رمل وزبد).

[٥] جملة من دفتر خواطر المرحومة التي تتمحور حولها القصة.

[٦] كلمة مستعارة من الفنان دريد لحّام في إحدى مسرحياته.

وكان الصباح الذي جعلني أقتني لأعيش فيه جميع الفصول التي طالما عاشتها في قلبها تلك التي أحبت حبيبها والآخرين حتى الجنون، واحتملت الألم والعذاب معتبرة إياهما قبلة من فم "الفيل أنتروبـوس"[٧]، وأي عذاب يمكن أن يكون قبلة من حبيب؟ والله إنه ليشبه قبلة يوداس[٨]. لكن يوداس ذاك كان بقبلة قد أسلم ابن البشر إلى الموت[٩]، أما هذا فبقبلة ينقل من الموت إلى الحياة.

وكان الصباح الذي جمع حشدا غافرا بالمأتم كما جمعت بنت عمران[١٠] الرسل من الأقطار ليضجعوا جسدها[١١]. وكان الصباح الذي نقلني أنا أيضا من الموت إلى الحياة[١٢].

بعد مرور أكثر من سنة عادت دموعي لتسيل وقد فهمت، وامتزجت روح جبران بروح فريديريك، ما معنى أنّ: "**ومن يدري إذا** لم **تكن الجنازة** بين **الناس، عرسًا** بين **الملائكة؟**".

الآن بكيت. لكن دموعي اليوم ليست سوى دموع ابتهاج. وعلى الرغم مـن أنهـا تجـرح منـي الوجنات، إلاّ أنها تعبر عن فرح غير أرضي، فقد صدق، وعذرا على تكرار التعبير، صديقتي، وعـذرا على التأنيث والتذكير، فريديريك، مع احترامي للغة العربية، وأنا لست أرمنية، فقد صـدق صـديقتي فريديريك، ومع وضع تاء التأنيث، صدقت صديقتي فريديريك عندما قالت: "عمتي التي هي أختي ترتاح في الفردوس". تلك الصديقة (أصبحت اليوم فريديريك) صديقتي الغالية التي كانت بالأمس وكنت معها واقفة في تلك الغرفة الواسعة التي تسمى مقبرة حيث يأتي نور من نافذة ولا من كوة في الجدار، بل من انسجام بين الأبدية والزمن، بين اللامحدودية والمحدودية، وحيث الصلوات ترتفع نحو العلى، هناك حيث ألقت ورقة ملفوفة في داخل المقبرة، وألقت بنفسها في أحضان أبيها بشوق وتوق مطلقـين. وأغلقـت النافذة الصغيرة على الجثمان، لتفتح في المقابل صداقة ستدوم إلى الأبد، إنها صداقة أولئك الذين يعرفون أن يقولوا وصدق... ولكن عن براءة.

---

[٧] من اليونانية Philos ومعناها محب Anthropos ومعناها إنسان، والمعنى محب للبشر.

[٨] يهوذا الإسخريوطي.

[٩] راجع يوحنا ٥: ٢٤.

[١٠] اسم العذراء مريم في القرآن الكريم.

[١١] إدلبي المطران ناوفيطوس، كتاب الصلاة لاستعمال المؤمنين ذوي الطقس البيزنطي، منشورات التجديد، دير الملاك مخائيل، الذوق-لبنان، ١٩٦٢، صفحة ١٦٠٠.

[١٢] راجع يوحنا ٥: ٢٤.

في **القطار**

من مكاربوس إلى **لبنان**

لم أكن أنوي أبدا خوض هذه المعركة الكبرى، لم أكن لأجسر مطلقًا على أن أرى الحزن في عينيها. ليتني كنت عدما، ليتني لم أخلق، ليتني كنت كذبة وأضحوكة تسمعها اليوم تنساها غدا. صـاح قائـد الجيش.

بين نائم وصاح، كنت في المقعد الأمامي. كان القطار مسرعا جدا، في طريقه إلى ... آه، آه لقـد نسيت إلى أين أنا ذاهب!

التفت وأجلت نظري إلى الأمام والخلف واليمين والشمال لأرى إذا كان أحد غيري قد سمع صراخ قائد الجيش. وبهت جدا عندما عرفت بأننا وحدنا فقط في العربة. خفت للحظة، وبعدها فتحت حقيبة يدي وتناولت كتابا، كنت بدأت قراءته، وهو بعنوان "**يسوع العامل** في **قطار**"[١٣]، وهو عبـارة عـن ذكريات مطران جليل (رحمه الله) عمل طيلة حياته مع العمال.

وفجأة، ما بالك لم تعرفني؟ لماذا لا تكلّمني؟ صرخ قائد الجيش، أنا الجنرال أبو القبضة الحديدية، ألم تقرأ عني في الصحف والمجلاّت؟

أدرت رأسي باستغراب ورمقته بنظرة تعجب واندهاش. فغير نبرته وقال لي: أيها القائد الأسود هلم اجلس بقربي أريد أن أسألك عن بعض الأمور الأخلاقية والدينية والاجتماعيـة، إنهـا الآن فرصـتي الوحيدة، فأنا لم أدخل كنيسة قطّ في حياتي ولم أعرف أبدا... قلت لك هلم واجلس بقربي.

أخذت حقيبة يدي ونهضت وجلست بقربه وقلت: تشرفت سيدي، إني أدعى ريمـاكوس ويلقّـبني أصحابي الأخصاء بلقب أبو الياس الحزين. ها ها ها، انفجر بالضحك وهل أنت متزوج؟

نعم ولا؟ أجبته بعبسة. فاستغرب واستغرق مجددا بالضحك وقال: يبدو أنه مكتوب علي أن ألتقـي المجانين في كلّ صوب. أجبني يا محترم ما هو الفرق بيني وبينك فأنا قائد عسكري وأنت قائد من نـوع آخر، ألا تظن ذلك؟

كلام جميل جدا، أجبته. نعم، أنا قائد لا جيش له ولا بلدا يدافع عنه ولا قضية يحارب من أجلـها. إني قائد لا تتكلّم عنه الصحف ولا يحارب أحدا والحرب معلنة عليه دائما. إني قائد لا يعرف استعمال الأسلحة. إني رجل كرس نفسه لأجل الحياة فإذ به يرى الحياة تصبح موتا وحزنا وألمًا وضياعا وفراقًـا ولوعة ومشاكل. وأنت، أيها القائد، ماذا تريد أن تقول لي اليوم؟ هل تنوي أن تخبرني قصتك وقضـية الحرب التي مات من أجلها شباب وأطفال وشيوخ، وكلّها في عرفك قضايا حياتية ومصيرية؟

[١٣] الكتاب للمثلّث الرحمة المطران المطران إفليمس جرجس شلحت، أسرة يسوع العامل، مطبعة جورج ومتيلد سالم، حلب.

لقد اقترنت الحياة بالموت والموت بالحياة وضاعت المقاييس. قل لي، أرجوك، أي قرار اتخذته بكامل وعيك وحريتك وأي حرب خضتها ولم تخسر فيها رغم جميع انتصاراتك؟ الفرق بيني وبينك هو أنـك تزوجت امرأة أنجبت لك أولادا للحياة، وتزوجت قضية كنت تظن بأنها للحياة وإذ بها للموت. ومـن أجل ذلك فأنت اليوم تصرخ وتتألّم. أما أنا فلم أتزوج امرأة ولم أنجب أولادا. واخترت أن أعيش مـع امرأة حزينة ومتألّمة ولها أولاد كثيرون. إنها رعيتي. والآن، تراني قد فقدت شبابي ونضارتي وأنا أركض وراءها لأجعلها سعيدة ومطمئنة. وماذا تريد؟ ما الذي يجبرني على ذلك؟ إني أتألّم إذ أراك حزينا اليوم.

انفجر القائد بالبكاء. أظنه لم يكن يتوقّع مني هذا الجواب. وقال بصوت تخنقه الغصـة: أرى أنـك فهمتني جيدا، وأنا فهمتك كذلك، ولا داعي لأن نعيد القصة كلّها. ولكن أرجوك قل لي: ما هو المصير الآن؟

لقد تركتني قضيتي ومضت وعبرت مثل غيرها بعدما كنت حديث الصحف كلّ ساعة. وظننت بأنها أحبتني وقدرت تضحياتي، وها هي الآن قد تغيرت كثيرا، ولم تعد قضيتي. فهل كنـت في حلـم أو في وهم أو خيال؟ وأسرتي أين هي اليوم؟ لقد أخطأت أيها المحترم، فأنا لم أتزوج، بل أحببت فتاة وحيدة في حياتي، هي قضيتي التي ناضلت من أجلها العمر كلّه، والآن ...

اللعنة عليك أيها القائد، صرخت بأعلى صوتي، لماذا تريد تدميري في آخر لحظة؟ ألا يكفيني ما أنا فيه من عذاب؟ إني قد أحببت فتاة ولا أزال أحبها حتى اليوم، وقد أحبتني حتى الموت ولا تزال تحبني. إنها تدعى الحب، وهي أجمل من الجمال ومن كلّ ما في الوجود، وأنا من أجلها أتعب وأعمل ولا أنتظـر شيئًا سوى الراحة وقت النوم والطمأنينة ساعة الحزن.

انفتح باب العربة ودخل رجل بلباس رسمي وتوجه نحونا.

همس القائد في أذني: إنه المفتش.

وقف أمامنا، وقبل أن يطلب البطاقات قال: لقد سجلتما اسمكما في محطّة الانطلاق، وقد دفعتما ثمن البطاقة، لقد اخترتما هذا القطار بالذات، وأنتما ذاهبان إلى المحطّة الأخيرة التي ستزورانها لأول مرة. نعم، لم تكونا لتعرفان الطريق. لقد اجتزنا منعطفات خطرة، وأوشكنا أن نموت مرات عديدة، ولم نيأس، بل سنصل بإذن الله. ولكن طالما أنّ القطار يسير، وطالما أنه لا بد لكما من قطع المسافة، فيجب أن تعرفـا شيئًا أخيرا، وهو أننا نحن الثّلاثة: أنا والسائق والمعاون قد حافظنا على سلامتكما بكلّ حزم وسنسـتمر حتى تصلا، ولكن إياكما أن تغمضا العينين. انظرا جيدا حولكما.

وفجأة، غاب عنا المفتش، وإذ بنا نرى العربة مليئة بالركاب، وجميعهم يحدقون بنظرهم إلينا. فقلـت له: ألا ترى أنهم بحاجة جميعا إليك وإليّ؟ انظر إنّ فتاتك تجلس في المعقد الأمامي، وفتـاتي في المقعـد اليمين.

وقبل أن أنهض وأتوجه نحوها، إذ بها تتوجه نحوي، وتقول لي: إني بحاجة إليك وسأبقى معك، لأني أحبك، وسأكمل الطريق معك. لقد كنت أنانيا ربما ولم تعرف...

وإذ بفتاة القائد تتوجه نحوه وتقول الكلام نفسه، وتعانقه.
قولي، أجيبيني، سألتها، لم أعرف ماذا؟
فقالت: إنّ المفتش والسائق والمعاون هم العناية الإلهية، هم الثالوث الأقدس العامل في قطار حياتنا.

غربةٌ عن الذات

ميراي

ليلة قاتمة يشبه سوادها سواد نفسي التائهة والحائرة. غريبة تلك الوحدة التي ملأت قلـبي وأبكـت عيني. حتى وجه القمر قد غاب عني، والنجوم لحقت به. وبيتي الذي كان يعج بات خاويا.

إلى أن وجدت يدي تمسك لفافة من النيكوتين، هذه المادة السخيفة كسـخف وحـدتي وقبحهـا وتشتت أفكاري ومبادئي. كانت لحظات معدودة وأطفأتها، وعدت إلى سريري وأغمضت عيني ورحت أذرف الدمع الثخين. وكان نظري متجها نحو إيقونة وجه المسيح المعلّقة في غرفتي الهادئة. عندها رأيت المجد والجمال والعظمة وجها لوجه. وإذ بشعاع غامض، خفي لا تبصره العين يخترقني ليكشف لي عـن مكنونات كامنة في داخلي. وبين الوعي وال لا وعي خطر ببالي ما قالته القديسة تريزيا الطفل يسـوع: "**إنّ يسوع يعلّم بدون دوي كلام،** لم **أسمعه قطّ يتكلّم لكني أحس أنه** في **داخلي يسدد خطـاي**"[١٤]. عندها علمت جيدا بأنّ استسلامي الوحيد لن يكون إلى توابع هذه المادة النيكوتينية السخيفة، بـل إلى من سدد خطاي في تلك اللحظة لأطفئها، وهو من يغنيني ويملأني، وينعم علي بمواهب وطاقات أقـوى مِن ألاّ أوظفها.

آمل أن لا تفارقني ذكرى تلك الليلة طوال عمري، فإنيّ فيها قد تواجهت بحب من تعجز أيدينا عن ملامسته وآذاننا عن سماعه وعيوننا عن رؤيته. وأدركت أنّ ذلك القلب الذي ينبض فينا أبدا سيكشف لنا الستار عن حقيقتنا.

[١٤] دي مستر كونراد، **البدان الفارغتان، رسالة تريز ليزيو**، طبعة ثانية، الرهبانية الكرملية، مؤسسة دكّاش للطباعة، بوار-لبنان، ٢٠٠١، صفحة ١٦٠. نقله عن الفرنسية د. دعد قناب عائدة.

إنما للصبر حدود

من مكاربوس إلى فلان

شيء فظيع أن يبقى الإنسان وحيدا مع أفكاره في غرفة معزولة. والأفظع منه أن تتـذكّر حياتـك، وتدرك أنّ الأوان قد فات.

ومشكلتي كانت تكمن في كوني أشعر دائما بأنّ العمر أمامي، أما الآن فهذا ليس بصحيح أبدا.

لم يبق اليوم من سبب لكي تتفوه بكلمة تلزمني بها على الرحيل، لقد اشتد ضغط الحيـاة، ولم يعـد بإمكاني مقاومة الرفض. إني راحل. وغدا ستتصفّح جريدة الصباح وستبحث في صـفحة الإعلانـات المبوبة عن عمل في ورشة، أو عن سيارة أو ربما عن شقّة. ولا بد من أن تقع عينك، لا محـال سـتقع عينك على هذا الإعلان: "عامل تنظيفات يبحث عن حشرة تشاطره المسكن. ليس مهما نوع الحشرة. المهم هي مقدرتها على مقاومة رائحة مبيد الحشرات. المعاش مغرٍ. هاتف...".

عندما ستقرأ رقم الهاتف، ستعرف حتما بأنه رقم هاتفي. فلا تتصل.

ماذا فهمت حتى الآن؟ ربما أنك لم تفهم شيئًا، أو فهمت قليلاً، أو استوعب عقلك الكثير. وهـذا أيضا ليس مهما.

ما هو شعورك عندما يكون الناس معجبين بك؟ أليس هذا أمرا رائعا؟ بينما أنا؟ لأني مرة أو مـرتين في الشهر أقوم بتنظيف غرفة نومي، وأداوم على ذلك منذ أربعة سنين. وفي كلّ مرة أترك شباك آخـر عنكبوت رحل من الغرفة عندما قدمت أنا إليها. أتركه للذكرى. لأنّ أيا من نوع الحشرات جميعـا لم يستطع التعايش معي.

وماذا يبقى بعد رحيل الأيام؟ شهرة، بيت، حب، عيش أم أصدقاء؟ لن يبقى سـوى الملـل مـن استغراب الناس من نشاذك. ومن يعلم أين الحقيقة؟ إنها على حد قول الكتاب المقـدس عـن يوحنـا المعمدان: "**صوت صارخ** في **البرية**"[15]، فمن يسمعه؟ إنه أشبه بضجيج التلفزيون وتساقط الماء معـا في الحمام، ومثله مثل تكتكة عقارب الساعة التي تنبهك عن مرور الوقت بدون أن تدري هي به، أو ربما هو يدري بك وبها.

وتلزمك مرآة فقط، لتنظر إلى ماذا فعلت بك هموم الناس. لقد أبيض شـعرك وظهـرت تجاعيـد وجهك. وعند أعتاب السم ينتظرك قعر الجحيم.

هذا هو العدل أليس كذلك؟ أليس عدلاً أن يكون المثلّث بثلاثة أضلاع وثلاث زوايا، والمربع بأربعة أضلاع وأربع زوايا؟ وذروة العدل أن تجد لذاتك عدوا هو أنت. وهذا أيضا وحي وإيمان.

---

[15] متى ٣: ٣.

وعندما يتعود الناس عليك، سوف يرونك ملا ويكرهون مجلسك، لأنّ أخبارك غير مفهومة وإبهامك رتيب كجريدة الصباح التي يعرفها مسبقًا الصحفيون الذين كتبوا محتواها في الليل، على حد قول إحدى الأغنيات الإيطالية[١٦].

وتذهب عند الساعة الخامسة فجرا لتوقظ صديقك لأنك لا تعرف ماذا يجب أن تفعـل. وعنـدما ينهض مرتعبا ويفتح لك الباب بوجه تظهر عليه ملامح الاصفرار والخوف، تتذكّر عندها أنّ الوقـت لا يزال مبكّرا، وتعود أدراجك. وتشعر بالارتياح لأنك نجحت في إثارة شفقة الصديق.

وأليس إذًا لذيذًا أن تشرب زجاجة من الكحول لتتذكّر بأنك حي؟ يشرب الناس الكحول عادة لكي ينسوا همومهم، أما أنا فأشربها مرغما لأدرك أني حي.

وكم جميل أن تشعر بالعبثية، فتبصر حلما، وإذ بالمسيح يشد علـى يـدك ويقـول: "**إنهـا أول المخاض**"[١٧]. فتعرف بأنّ الآتي أتعس، و"**أنّ الذي يصبر إلى المنتهى، فذاك يخلص**"[١٨].

فلا تأخذنك إذًا أغنية المرحومة أم كلثوم: "**إنما للصبر حدود**".

---

[١٦] أغنية "L'Italiano" للمغني الإيطالي Toto Cutugno.

[١٧] متى ٢٤: ٨.

[١٨] متى ٢٤: ١٣.

التقيت به عجوزًا

ميراي

أبدأ بخلاصة لقائي به لأنها أجمل ما في قصتي. كان ذلك تحديا مع ولعقلي، ومجازفة مـع ولقلـبي، وانجرارا مع ولجسدي. علما بأنّ المعروف عني أني فتاة تعرف أن تجمع بين رجاحة العقل وبراءة القلب وحاجات الجسد. ولكن الذي حدث كان صعب التفسير ومستحيل التبرير.

وفي نهاية المطاف، انتصرت وعلمت بأنّ هذا ما يوحدنا بالله.

كان لقاءً طرق على بابي. وكان فراقًا جلس على أريكتي. وكان تحد أوقفني من على زمـني وعـن زمني ليخرجني من ذلك الباب.

والتقيت به عجوزا في هيئة شاب. ولم يكن الشعر الأبيض قد كسا رأسه بعد، ولم يكن التعب قـد أنهك جسده، ولم تكن مرارة الأيام قد أفقدته ضحكته وحماسه. ولكنه كان، كما عرفته حينها، ممن لا أحلام لهم ولا رغبات.

وافترقنا مدة. وعدنا. وعلى الرغم من هذا الفراق عنه، ظلّ طيفه أمام ناظري وصوته يهمس في أذنيّ وقبلته رسِمت على جبيني. وكان السؤال الأكبر: كيف السبيل بي إلى التحرر منه؟

وكان حالي كحال صياد متمرس لا يقوى على قتل فريسته. وفريستي كانت ذلك الطّيـف وذلـك الصوت وتلك القبلة على الجبين.

وبعد تفتيش مضنٍ على من كان بمقدوره أن يخلّصني من قيودي مع ومن ذلك الشاب-العجـوز، وجدت نفسي مرتميةً بين يدي اللامحدود بزمان ومكان، وبين يديه المسمرتان على الصـليب وإكليـل الشوك على رأسه يقطر دما قد تجمد في جروحه. عندها أدركت أنّ الرب يشتاق أن يكـون تعزيتنـا ورجائنا وأملنا. لنناديه من عمق أعماقنا ليضمنا. وبعد أن يكون "**سواد الليـل قـد تسـرب حتـى الأحشاء**"[١٩] على حد قول تلك الترنيمة الجميلة، تحررت من العجوز لأعبر إلى ما وراءه.

[١٩] ترتيلة لفريق "أغابي" بعنوان "هل أطرق بابك".

العاهرة والقديسة معًا

من مكاريوس إلى فيليب أخرس

على طول الشاطئ الممتد من جونية إلى جبيل، جلسنا ننسج، بحروف من ذهب أشـعة الشـمس، قصة، لا بل أسطورة من حلم وحقيقة.

يقولون، هنا هناك، ما الذي يحلّ بالبلد من أحداث وغرائب وروايات تنقلنا تارة إلى السماء وأخرى تهبط بنا إلى قعر الجحيم؟ ومن يدري ماذا سيحلّ بنا غدا عندما تشرق الشمس من جديد؟

ثوبك الأحمر من شعاع الغياب، ووجهك الوهاج من دفئ انعكاس الحرارة. لماذا تخبرين عني سحاب المطر؟ سيسقط غدا (السحاب) مطرا وتبتلعه الأرض العطشى. ويعود ليصب مـن جديـد في البحـر فتأخذينه دفئًا ومعه تلبسين ثوب حمرة الشمس لتعود القصة مجددا تروي نفسها على مسـامع سـراب المستقبل حيث لا تسمع سوى كلمة "لعيونك"، وحيث تسقطين أسيرة لعبة البـثّ الفضـائي لقنـاة سيوقفونها عن البثّ. ويجري من بعيد نهر الموت حيث سباق السيارات يقود نحو نهر الموت، وليس من له أذنان للسماع ليسمع.

وعلى الثّامنة تماما يذيعناك خبرا في نشرة المساء التي تتخلّلها دعاية لبيرة أو ويسكي أو ربما لحفّاضات الأطفال.

ويقولون بدون أن يفهموا ذاك يسرق الوطن. ومتى كان الوطن درهمًا ضائعا على طريق مهجـورة يلتقطه عابر سبيل غريب؟

وترتفع الأصوات فجأة لتنشد "**كلّنا للوطن للعلى للعلم**"، وما أدراك أي وطن هذا الذي تحلم بـه العيون، وأي علم هذا الذي لونه دخان العربات؟

وتذكرين تلك الرحلة في القطار وأغنية السيدة أم كلثوم: "**وما أطال النوم عمرًا ولا قصر بالأعمار طول السهر**". وأيها القارئ إقرأ، إذا كنت لا تزال ساهرا بعد ولك صبر وأجفان، بالأمس قلت أحبكِ واليوم الوداع، وغدا أعود و"**هل أعود**"، على حد قول أغنية السيدة ماجدة الرومي.

عشقتكِ يا ... و"**أنتِ صغيرة وأنا ابن سبع ما بلغت الثمانية**"، على حد قول ذلك المـوال الحلـبي لأديب الدايخ، وليس من أمر إلاّ وله من يخبر عنه تحت الوسادة. وماذا سيقولون غدا؟ هـل سـيكون عندهم من جديد؟ أم إنهم ينتظرون البابا ليأتي مجددا من بعيد؟ أما أنا فسأبقى هنا ريشة في مهب الريح، أترك نفسي ألعوبة بين أناملك السحرية وقد ارتفعت لتحضر لي لقمة ليوم عصيب، ولشمس من يعلـم إذا كانت ستشرق فوق رؤوسنا يوم الاثنين وتعطينا من الطاقة ما يكفي لنستمر حتى مسـاء الأحـد المقبل؟

أنتِ وما أجمل أن أكون معك. عليك اتكلت منذ زمن بعيد. كنت أبكي على صـدرك، وكنـت أضحك معك في ليل حزين. أنتِ ولا أحد على وجه الأرض يستطيع أن يدرك لماذا أحبك اليوم وغـدا لا، وبعده نعم، ومن ثمّ لا إلى ما لا نهاية. أنتِ ما يخبرون عنه ويقولون بحقد إلى أين يذهب البلد؟ أنتِ ألمي وفرحي معا. بعيدة وقريبة في الوقت ذاته. أنتِ، أُغضبك فتهربين، وأُدلّلـكِ فتركضـين نحـوي وتعودين. أنتِ، تبكينني لساعات وتفرحينني لثوانٍ. أنتِ وهم ينظرون إلينا بعيون من شرر. أنتِ، ليـتني أفهم من تكونين؟

كلّ ما أعرفه عنك لا يساوي شيئًا أمام الحقيقة التي يجهلها الجميع. والحقيقة هي أنك تصنعين منـي إنسانا محبوبا مكروها غريب الأطوار. مجنونا حينا وعبقريا حينا آخر. وأخافـكِ وأعـود وأرتمـي في أحضانك. وأخشى أن يأتي يوم ولا تكونين.

أنتِ سبب كلّ الجرائم على وجه الأرض وعلّة السلام أيضا. كلّ يدعي معرفتك وامتلاكك وهـو عنك جد بعيد. أنتِ صنعتِ الأجيال وإذا كان اليوم ثمّة أمل لأجله يحيا الذين يفهمون، وهم قليلـون، فهو لأجل أن تسودي على العالم وتحكمينه بيد من حديد.

ومن سيقرأ هذه الكلمات، سيظن بأنه يقرأ ضربا من جنون، أو بأنّ حبيبتي التي هي أنتِ، ليسـت سوى وهم وخيال، وربما أنتِ هكذا بالنسبة إليهم.

ستكونين أبدا معي حتى الممات، وسأفتش عنك حتى نهاية الأبدية، وهل للأبدية نهاية؟ وأعرف بأني قد وجدتكِ وبأني لم أجدك بعد، وبأني لا أستطيع تحديدك لمَن يسألني عنك.

ولمَن يسألني عنك أقول: لقد قرأت ما ومن هي بدون أن تعلم وتدري. فحاول أن تفهم لمـاذا أنـا غريب الأطوار إلى هذا الحد؟

هذا ما فعلته بي تلك العاهرة. وهذا ما فعلته بي تلك الراهبة. وهذا ما فعلته بي تلك الشريرة. وهـذا أيضا ما فعلته بي تلك القديسة. أما اسمها فهو "الصداقة".

المسافر

ميراي

في وضح النهار. في وضح نهار يشبه وضوح علاقة ثبتها مرور الأيام؛ وكان من الأفضل أن تكـون الجملة معكوسة وتشبيه ثبات العلاقة بوضح النهار لا العكس؛ ومثل ثبات تلك الشجرة الـتي اتكـأت عليها. في وضح النهار سقطت ورقة من على غصن قلبها. وإذا بالذكريات تصب أمام عينيها ما غـاب عن قلبها لبرهة.

ومثل من يسافر غفلة عن بلاده وعن أهله وعن أصدقائه، ويحمل حقائبه والليل ساكن والهدوء عارم والقمر والنجوم في حالة سلام، هكذا سقطت المقولة الهوجاء من مخيلتها لتعلن: هنيئًا لمن يحمي ما هـو مجانيّ للجميع.

مسافر طالما جرحه "الفراق". وها هو يختار ما قد خطّ عنه قلمه صفحات عديدة في ليالٍ طوال، وما عان منه قلبه الكثير إلى أن لقي الدواء عند أبٍ محب صادق وعفوي وحكيم، استطاع استيعابه في جنونه وفي صراخه وبكائه وضحكته.

وكم أصبح العالم صغيرا؟ إذ اتصال واحد يعبر الجبال والسهول والأودية ليمتزج بجليد قوي صـلبٍ من الصعب أن يذوب. والصعب هو لأهل الصعب.

صغيرة أنا، إلاّ أنّ الحياة علّمتني أن لا أذوب إلاّ بعد أن يزول الشتاء ليأتي الربيع بشمسـه ودفئهـا فيرضخ جليدي مستسلما.

وعلّمتني الحياة أن أكون حجرا ثقيلاً لا يرمى أينما كان، ولا يداس كيفما كان. فإذا شاء القدر أن أُنقل بجرافة، عندها أقول: حبذا لو أكون أساسا وركنا لأسرة صالحة. لأسرة تعيش للمسيح وفيه.

وبكلّ تواضع ممزوج بعزة نفس أخطّ، هنا، خبرتي البسيطة، بنظر الجميع، والقوية والبنـاءة بنظـر والدي. لقد التقيت بإنسانٍ قد ضيق علي سابقًا أنفاسي، وأنزل الدمع السخي من مقلتي. وأين؟ في مبنى يتكلّم عنه المدرسون بغباءٍ مزعج، ويقال عنه إنه الأساس لمستقبل مبتسم، وللبنان قوي. وما أدراك مـا هو ذاك المبنى؟ وقد كان خيار الابتعاد جذّابا.

حزمت أمتعتي وهممت بالرحيل، وإذ بصراخ يدوي في نفسي التي وإن كانت مقيدة بجسد فـانٍ إلاّ أنها لا تزال صغيرة وأضعف من المقاومة، صراخ يعلو ويهتف قائلاً: لقد وصل الطبيب والأب ليتربـع على عرش قلبك يا فتاة. ولكن أي طبيب وأي أب أبشر به أبعد البعيدين وأقرب القريبين، كما تقـول صديقة، إنه ربنا وإلهنا يسوع المسيح الذي له القدرة والمجد إلى أبد الأبدين. آمين.

نعم، دوى صوت صراخ في نفسي. دوى، لا في أرجاء بيتي أو شبيبتي، بل في نفسي.

فعدت أدراجي أبحث عن بطل قصتي المسافر. أو ما تتساءلون هل سافر أم بعد؟ ولكن إلى أين؟ وهل يملك ما يكفي من المال والثياب؟ ولكم من الوقت سيبقى هكذا متغربا عن وطنه وأهله وأصدقائه؟

أجيب. كما أنّ الجليد يصبح بشروق الشمس جاهزا للذوبان، وكما أنّ أكبر الصخور والحجـارة بات من السهولة نقله من مكان إلى مكان، هكذا نقل المسافر وعاد من غربته التي دامت طويلاً، عـاد ليحمي ما هو مجاني للجميع.

البقية في العدد القادم

ذكرياتي مع الحرب اللبنانية

انظر، هل ترى جحافل النمل وقد ثقبت كيس الخبز وبدأت تلتهم الأرغفة؟

حقا، كم هو منظر رهيب!

ألم أقل يا بني ألف مرة، كف عن هذا الهبل.

غريب هو منظر النمل يا أبي وهو يلتهم الخبز. ألا ترى معي أنّ الأمر يسترعي الانتباه؟ وأنت، يا أبي مثل هذه النملة تثير فضولي وحشريتي. لا أدري بالفعل إذا كنت حيوانا أو حشرة أم إنسانا؟

مسكين ابنكِ يا امرأة، إني أشفق عليه، وفي الوقت نفسه سيأتي يوم أقتله فيه وأنتهي منه إلى الأبد.

اهدأ يا رجل، ابننا طبيعي جدا، ولكنه ربما يمر بأزمة ما.

كم أنتِ حمقاء يا أمي، أنت أيضا تشبهين السلحفاة الصغيرة البليدة، وخاصة عندما تبدأ فلسفتك بالتدفّق.

ويخرج الأب من البيت والحسرة تأكله والكره يعمي عقله. وتذهب الأم إلى مطبخها للعمل.

وفي مكانٍ ما من هذا الكون الكبير قبعت وحيدةً حشرةٌ صغيرةٌ جدا (يسمونها في علم الحشرات PseudoCocus، وهي نوع من المن الذي يضرب أشجار الحمضيات فيجعل أوراقها تصفر وتموت خلال وقت قصير وتموت). هناك جلست وحيدةً تفكّر في نفسها وتتأمل هذا الفضاء الشاسع الواسع. وقالت فيما بينها وبين ذاتها: أي نفع لي من كلّ هذا العناء والشقاء هنا على هذه الشجرة الشقية التي تعود هذا الكائن الغريب الأطوار الذي يدعى الإنسان أن يأت إليها خمس مرات في السنة ليزعجها ويزعجني معها ويقتلني. ما باله هو؟ أين كان حين كنا تحت الشمس نحترق؟ ألم يكن هو في داخل هذه المباني الغريبة يحتمي من شعاع الشمس؟ وأين كان حين كنا نموت بردا ونتبلل بالمياه في الشتاء؟ ألم يكن هو أيضا في الداخل جالسا قرب النار؟

أعرف بأنه يجب علي أن أسعى لبلوغ القوة، يجب أن أدمر هذا الكائن الشرس النهم الذي يسمونه إنسان.

تعالي أيتها الأميرة الصغيرة لأخبرك قصتي الجميلة: كان في قديم الزمان وسابق العصر والأوان كائن يدعى الإنسان، هذا على ما أعلم ما كان. والآن ماذا حصل؟

أين كنتم جميعا حين؟

أسمع هدير المحركات يزعجني من كلّ صوب. وأرى حولي أناسا لا يعلمون إلى أين هم متوجهون.

أين أنا اليوم يا ترى؟ وأين أيامي التي قد رحلت؟ ولكن لا وألف لا. لا لكلّ من يريد أن يريني العذاب. ولا لكلّ من يلذّ العيش بتحطيمي.

أين كنت أنت؟ أين؟ أين كنتِ أنتِ؟ أين؟ أين كنتم جميعكم؟ أين؟

حين كنت في الميدان وحيدا وكانت القوافل تمر من حولي ولا تكترث بي ولا بغيري؟ أين كنتم؟ أين كنتم حين كان قلبي يغص بالألم؟ وحين كانت أشباح الموت تحدق بكياني النهار والليل.

هناك حيث صمت الجميع ولم تكن ثمّة لغة سوى لغة المدافع والقنص والرصاص، كنـت وحيـدا وأجنبيا بين إخوتي. كنت سيدا بين عبيد لا سادة لهم. كنت عمرا يركض نحو حتفه.

في تلك اللحظات، ولا أظن ... لم يفطن أحد لنضارتي، ولم يتفكّر مخلوق بمستقبلي. كـان المـوت صديقي الوحيد والدمار أنيسي النديم، كنت محتاجا إليكِ فأين كنتِ؟

تعالي وأنظري بعضا من جسد صديقي وقد أكلته قذيفةٌ جائعة، وهذا الطفل الغريـب سـقط، وفي الحي المجاور هوت امرأة تحمل ربطة خبز.

أين كنت أنت حين عصفت الريح حول بيتي وناح الغراب فوق سطحي؟ هل كنت؟ في المنـزل أم في الحقل؟ هل كنت هناك تحت شجرة السنديان؟ كنت وحيدة ولم يكن من يرثي لحـالي. وكانـت الأشباح تطاردني من كلّ صوب. كنت وحيدة لأمي وأجنبية عند معارفي. فهل يقطف مـن الحـرب هدوء أم من الموت فرح؟

كنت آكل رغيف الفناء وأشرب كأس الضياع. كنت صبية حلوة مفعمة بالحب والحياة. وفجـأة، هوت أوراقي واصفرّ ربيعي. أين كنت عندما كنت بحاجة إلى صدر حنون، وقبلة دافئة وكلمة حلـوة؟ مات أبي ومرضت أمي وسافر إخوتي. وماذا بعد ذلك؟ يصعب علي الكلام. والأصعب منه هو التفكير بتفاصيل حياتي. لقد مللت من كلّ شيء وخاصة من الهواء والريح العاصفة.

أين كنتم جميعكم حين أردت الشيخوخة ولم أحلم بها. وحين رفضت الشباب ولم أنـتقم؟ وحـين أصابني مرض: توت، توت، توت، توت. تش، تش، تش، تش. فس، فس، فس. سئمت أيام الشباب ومن عاشها غريبا ومهجورا في عالم ال لا أعرف ماذا!

هذه قصة الإنسان... أرأيتم كم هي جميلة ومشوقة؟

وما هو الإنسان يا ترى؟ ومن هو؟

إنه في الواقع شريط مسجل يعيد ذاته كلّ يوم. إنه فكرة تمر وتنقضي ويمحوها الزمن، لأن لا جديد فيه ولا عنده. والأغرب أنه يشيخ ويكبر ولا يعرف شماله من يمينه.

أيها الأبناء المحبوبون منا بالرب، هل سمعتم قول الله: "**أحبوا بعضكم بعضًا**"[٢٠]؟ هذا كلام الكـاهن الجليل. وما هو الحب يا ترى؟ وهل يعرف هو أن يحب؟

الحب هو أن تكون حشرة صغيرة على شجرة ليمون. أو سلحفاة بلهاء تنام في الشتاء وتصـحو في الصيف كي تتنقل من مكان إلى آخر بدون أن تعي ماذا يجب أن تعمل. الحب هـو نفسـه الضـياع. والحب عذاب بدون نهاية.

[٢٠] يوحنا ١٥: ١٢.

وما هو العذاب يا ترى؟ إنه الشعور بأني لا شيء على الإطلاق.

وما هو الشعور؟ إنه دائرة مفرغة تدور مثل دوران عقارب الساعة، الآن في الأسفل وبعد قليـل في الأعلى. وهذا ما يسمونه الزمن! أليس كذلك؟

الزمن أكل وشرب ونوم وإشباع لحاجات ال لا أعرف ماذا.

وختم الكاهن الجليل عظته قائلاً: "طوبى للرجل الذي يستطيع أن يحب بدون أي منفعة".

وفي الصالة المجاورة لشجرة البلح صوت كلب ينبح. وعلى الرصيف في الخارج امرأة تصرخ بـأعلى صوتها: اللعنة السوداء على كلّ جنس من لبس الثوب الأسود. من تراه يلبس الثوب الأسود. طز، طز، طز. إنه الذي يعتقد بتقوى الرب.

أهلاً وسهلاً بكم يا حضرة سيدي مبيد الحشرات. ولكن قلْ لي: لماذا تسمح لنفسك ما تحرمه علـى الآخرين؟

ومنذ متى كان مسموحا للحشرات أن تسأل أربابها أسئلةً وجودية؟

وخيم الضباب في كلّ مكان. ومالت الشمس نحو المغيب.

وعاد أبي من عمله متعبا ليرى أين أصبح ابنه. فدخل علي في غرفة نومي فوجـدني راكعـا أصـلّي وأتضرع وأقول: تذكّرت الرب الذي أعطاني العقل كي أشقى به، فيا رب، صدق قول شاعر العـرب العظيم أبي الطيب المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم[٢١]

علمت يا رب بأنك منذ الأزل صنعت جميع الكائنات، وأعطيت لكلّ منها عمله. والآن فأنـا أرى نفسي عديم الفائدة وعقيم، وأتساءل بمن أو بماذا أشبه نفسي؟ إني لا أشبه أحدا في الجهل والشـقاوة. ساعدني، يا خالق الأكوان، فقد شقيت بعقلي.

وإذ بأبي يناديني: انهض سريعا الآن عرفت بأنّ... ومات والدي وتركني...

وبعد يوم ماتت أمي. وبقت أرفع أحمال الماضي. ولا شيء جديد على وجه الأرض. كلّ شيء هـو في الماضي.

لذلك أنشدت فيروز وغنت "**بديت القصة تحت الشتي.** في **أول** شتي **حبو بعضن، وخلصت القصة** في **تاني شتي. تحت الشتي تركوا بعض**".

وماذا يعني ذلك؟ يعني أني لم أكن شابا أبدا. ولم أعرف في حياتي سوى تك، تك، تـك. صـوت عقارب الساعة التي يجب أن تنجز مهمتها. وربما تجعلني أشعر بأنّ أيامي قد ضاعت مني.

وتساقطَ الثلج على رؤوس الجبال. الويل للثلج إذ ما عقبه المطر.

والبقية في العدد القادم.

[٢١] راجع الموسوعة الشعرية المعتمدة...

تحرر الذات

ميراي

بعد طول غياب، وبعد بحث مضنٍ، وبعد مناجاة طويلة وشوق كبير، اهتدت إلى قلمها وقد ملأ الدمع عينيها، وراحت الأفكار تتسارع إلى ذهنها وقد خنق الشوق أنفاسها.

وها هي يدها لا تعرف الحراك، وها هي أفكارها قد تجاهلتها إلى أن ضاعت منها الكلمات، وبات حتى جمع حروف الأبجدية لا يجيد نفعا. فماذا عساها تكتب؟ وكيف عساها تعبر؟

ومضت لحظات عابرة وخاطفة فيها من الغرابة ما يثير الشك، شعرت بنفسها أنها تسير على شاطئ البحر وقلمها مرمي على الأرض، وبأنها تهيم في بحر من العواطف. أما روحها فكانت أسيرة تارة لأشواق من عالم آخر، وأخرى ثائرة تريد التحرر التام.

وفجأة، وجدتها تبكي بدون أن تعي السبب، وأخرى تضحك مما يبكيها. وإذ بما كان يجرحها لبرهة خلت ينقلب دواءً يعالجها في لحظة عتاب شخصي لذاتها. وما كان يقتلها يتحول في داخلها إلى سبب حياة.

ووسط هذا الضياع والتخبط، وفي عباب هذا الهروب من الحقيقة وإليها، وفي خضم هذا الاسترسال بما أطلقت عليه اسم أنانية، رأت نفسها أمام الباب تفتحه لذاك الصمت الذي طرق بابها بغتة.

اقتربت بتردد من الطارق، وأبعدت ذاك اليأس المجاري لأيامها، وكسرت ذاك الخضوع لزمانها. وتوجهت نحو ذاك الغريب الذي يشبه تلك الغربة التي طالما تلاحق لياليها؟ وما أن وقعت عيناها على وجهه حتى شعرت بتكسر الأمواج وتخابطها. فأغمضت عينيها علّها تفهم ولو لبرهة ما الذي يجري، وما هو ومن هو هذا الغريب الذي يقف أمامها ليوقف التقطّع الذي يحصل في صدرها، والحنين الذي أمات البسمة على شفتيها. وإذ بها تسمع قرعا عنيفًا على صدرها، وتذوق طعم لهفة تهتف من عمق أعماق روحها: أرجوكم، لا أريد أن تنقض أشباح الليل على مضجعي كلّ يوم، ولا أريد أن تسيل من مقلتي دموع تعجز البحار والمحيطات عن استيعابها، ولا أريد أن تغيب الضحكة عن وجهي، ولا أن يدوي صدى صرخاتي فقط في نفقات ودهاليز روحي.

وفيما كان الصمت لا يزال يخيم على الموقف، ارتفعت عيون الغريب نحو العلى، نحو صفاء السماء، ورونق أشعة الشمس الذهبية، وجمال البساتين والأشجار والزهور، فالتفت بنظرها لترى، وأدارت مسمعها لتصغي إلى أناشيد الطيور، وترى الأمل وجها إلى وجه، وتسمعه يناديها، فتسرع إليه معانقة إياه بذات الشوق الذي يتخبط في صدرها، وكأنّ مقولة جبران: "**إنّ الينبوع الكامن** في **أعماق نفوسكم سيتفجر يومًا ما ويجري منحدرًا إلى البحر، والكنز المطمور** في **أعماقكم غير المتناهية**

سينقب في **ساعة لا تعلمونها وتفتح أبوابه أمام عيونكم..."**[٢٢]، قد كُتبت في تلك اللحظـة بالـذات لتكون خصيصا عنوانا لهذه الرحلة من حياتها.

وبقي التساؤل صارخا في داخلها: كيف أصنع ذاتي الحرة؟

لقد عرفت الآن، ولا تدري إذا كان الأوان قد فات، الدافع الذي كان يحثّها على القيام بتلك الرحلة في عباب البحر.

وكأني بالغريب يعطيها، بصمته، أجوبة على تساؤلاتها العديدة عن الحياة والمـوت، وعـن الفـرح والألم، وعن الحلم واليقظة، وعن الإيمان والإلحاد. وكأني به يقول لها بدون التفوه بأي كلمـة: إنـني عجوز في جسدي، وطفل في عقلي، ومجنون في عاطفتي. واسمعي يا صغيرتي: "**حياتنا كلّها ربيع لأننـا نملك** في **داخلنا الحقيقة الدائمة التي تنعشنا حتى النفس الأخير**"[٢٣]. فتشعر بكلامه أنّ فيه صدى أقوال القديس إقليمنضس الإسكندري. لقد حدث الأمر الخارق للعادة وأتاها بوقع أقدامه الصلبة التي هـزت شاطئ بحر نفسها، وأحنى سماء مخيلتها لتسمعه من جديد هاتفًا، بصمت أعظم، مـع الأديـب اليـاس الشدياق: "**حرام منع العصفور أن يغرد، والوردة أن تزهر، والصباح أن يبصر النور، والغجريـة أن تغني، والديك أن يصيح، والابتسامة أن تطلّ، والشجرة أن تثمر... على الحب أن يكتمل...**"[٢٤].

فأدركت، ساعتها بأنّ الزمن قد مات فيها. لقد مات لأنّ الحب قد مات.

فهل يوجد إذًا من يسعى إلى إعادة الحب إلى قلب تلك الفتاة، لكي لا يعود شبابنا إلى التخـبط في عالم الآلة والتصنع والتكلّف والسطحية والرتابة، ولا يقهر الأمل والحلم المترعرع في داخلهم، ولا، ولا، ولا، فتنهض فيهم همم الشباب من سباتها لتبني حجارة جيل قد تعب، حجارة لبناننا المهمش، والمُنقسم، والأمي، والمتغرب.

---

[٢٢] **مؤلّفات جبران جلبل جبران المعربة عن الإنجليزية**، المجموعة الثّانية، مكتبة صادر، دار جبران، بيروت، ١٩٨١، صفحة ٤١.

[٢٣] بسترس المطران كيرلّس سليم والفاخوري الأب حنا والعبسي الأب جوزيف البولسي، **تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة**، طبعة أولى، منشورات المكتبة البولسـية، جونيـة-لبنـان، ٢٠٠١، المربي، صفحة ٣٨٢.

[٢٤] الشدياق الياس، **الطريق إلى الحياة**، طبعة أولى، مطبعة دكّاش، كسروان-لبنان، ١٩٩٠، صفحة ١٥٤.

هذا هو الإيمان

من مكاريوس إلى فيليب الأخرس

على شفير الحياة جلست تلك الليلة الغريبة. ومرت دقائق معدودة، وإذ بي أعيش وقد كنت ميتا. وإذ بالموت يختلط بالحياة والعدم بالوجود.

ثمّة أشياء عجيبة فعلاً حصلت تلك الليلة، لا أعرف أن أصفها. جلّ ما أعرف هو أنني تأكّدت مـن حقيقة وحيدة وفريدة: أني لست من ههنا. ولا أقول إني لست من هذا العالم، لأنه ينبغي علي أولاً أن أدرك كنه هذا العالم، وأن أعرف لماذا يدعى عالماً قبل أن أحكم عليه. وكلمة لست من ههنا لا تعـني الكثير، لأنها مجرد نفي للمكان. والمكان مرتبط بالحواس، والحواس من يضبطها؟

لست من ههنا، ربما تعني أنني لن أفهم أبدا لماذا أنا هنا. وخاصة أنّ ما ليس ههنـا يشـدني نحـوه بطريقة عنيفة، حتى أكاد أن أفقد كلّ ارتباط مع جسدي الحسي هذا.

كلّ ما أستطيع قوله الآن، اختصره بهذه الكلمات غير الواضحة وغير المفهومة: لا شيء هنا يفسر نفسه سوى تاريخ مشرحة الفكر التي عرت الفكر نفسه من إمكانية جمع وربط ما يجري من حوله من أمور.

من العام انطلقنا نحو الخاص، ومن الملموسات شققنا طريقنا نحو المجردات. ومن ثمّ عـدنا أدراجنـا لننطلق مجددا من الخاص نحو العام، ومن المجرد نحو الملموس.

وما هذا سوى تسلية شيقة ومملّة في الوقت عينه، لن تفيد في شيء سوى كونها تخدم لإضاعة الـزمن قبل أن يدفنه ال -لا- زمن.

وتبقى اللعبة لعبة الأقنعة والوسائل الواقيـة، وقـد صـدق قـول الجامعـة: "**لا جديـد تحـت الشمس**"[٢٥]،"**وباطل الأباطيل وكلّ شيء باطل، وعناء الروح**"[٢٦].

وهذه، ربما، هي الحقيقة التي تجعل أرواحنا تتألّم طالما أنها محصورة ههنا في المكـان والزمـان، لأنّ روح الإنسان وفكره لا عنوان لهما.

ومن هنا نفهم، ربما، قول يسوع: "**إنّ للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، أما ابـن البشـر فليس له مكان يسند إليه رأسه**"[٢٧]. بالطبع لأنّ جميع الأمكنة لا يمكنها أن تريح الإنسان.

وبعد، ما الغاية من كلّ هذا الحديث؟

---

[٢٥] الجامعة ١: ٩.

[٢٦] الجامعة ١: ٢.

[٢٧] متى ٨: ٢٠؛ لوقا ٩: ٥٨.

رأيت الناس على وجه البسيطة يتخبطون ويتقاتلون ويقتلون هنا وهناك، ومـن جنـون إلى جنون. لذلك صدق قول صاحب المزامير: "**الرب يسخر منهم**"[٢٨]، لأنهم، في الحقيقة، أجدر بالسخرية لا أكثر، فأنت تراهم يتمسكون بالهاوية ويتعلّقون بالماضي، والماضي زمان قد مضى. ويتخاصمون على ما قد زال وما سيزول. ويتكلّمون عن الغد، ويظنون بأنّ الكون سيزول بدون أن يشعروا بأنّ الكـون باقٍ كما هو، وأنهم، هم، إلى الزوال ذاهبون. ويبكون موتاهم وكأنهم باقون أبدا.

أما أنا فأبكي في مأتم وأضحك في الوقت عينه، إذ أضع نفسي مكان الذي "**سارع ماضيًا من وسط الخبث**"، على حد قول الحكمة، "**فأبصرته الشعوب ولم يفهموا، ولم يصغوا** في تمييز **فهمهم ما معـنى هذا**"[٢٩].

ويبقى المعنى الحقيقي لكلّ ما يجري تحت الشمس مكتوما عن عيون سكّان هذه الأرض. ربما لأنهم باتوا تحت انقاد الزمن، وخاصة لأنه لم يبق من الزمن سوى حطام الأيام والسنين، وأصبح حصاد الدهر أطلالاً تنوح فوقها الغربان. لأجل ذلك صدق قول المتنبي:

أُريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلُغه من نفسِه الزمن[٣٠]

ويستمر العناء تحت الشمس إلى ما لا نهاية، طالما أنّ إنسان اليوم قد أصبح سائحا وسابحا في مستنقع من سراب.

هذا ما حلمت به تلك الليلة العجيبة الغريبة، فعرفت لماذا لم يبق للحب من مكان تحـت الشـمس، ولماذا يجب أن نبكي على الماضي. فكلّ ذلك لأننا لسنا من أبناء البدء، والبدء هو وفيـه الأزل، ولهـذا صدق قول الرسول الحبيب: "في **البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله والكلمة كان الله**"[٣١]. والله وحده هو الأزلي. انطلاقًا من هنا من لم يكن من أبناء البدء فلن يستطيع أبدا أن يعبر إلى ما ليس ههنا.

وأن نعبر إلى ما ليس ههنا، يعني أن نرتفع ونترفّع عما نعتقد بأنه حقيقي وصـحيح، لأنّ الحقيقـة، وحسب قول صاحب المزامير، "**قد ضعفت عند بني البشر**"[٣٢].

وفي الختام، لا بد من أن نعود جميعا إلى كلمة الرب الحقّة: "**ومتى جاء ابن الإنسان، هل يجد الإيمان على الأرض؟**"[٣٣].

هذا هو الإيمان أن نعرف بأننا لسنا من ههنا.

---

[٢٨] مزمور ٢: ٤.

[٢٩] ترجمة قديمة لنص سفر الحكمة، من **كتاب النبؤات الكنسي كما هو معين** في **كتاب التبيكن والتربودي والبندكستاري والبناون السنوي**، مطبعة دير القديس يوحنا الصابغ، الخنشـارة-لبنان، ١٨٨٥، صفحة ١٦٢. ٥ كانون الأول عيد القديس سابا.

[٣٠] راجع الموسوعة الشعرية المعتمدة...

[٣١] يوحنا ١: ١.

[٣٢] مزمور ١١ (١٢): ٢.

[٣٣] لوقا ١٨: ٨.

صدى كلمات

ميراي

جئْتهم وفي القلب حسرة على أحلام وفتوة شباب الوطن.

جئت والذكريات العارية والقاسية من الحرب الأهلية التي قال عنها فخامة الرئيس السـابق اليـاس الهراوي في العديد من خطاباته: "**حرب الآخرين على أرض لبنان**". جئْتهم تسأل عن "**الفـتى الـذي يرقص عاريًا أمام النار، عن وطن لا يزال مشروعًا لإنسان كالفكرة، عن طفولة كـادت تمـوت** في بحيرة **من القيح، عن شباب عانقَ الأغلال والقيود**"[٣٤].

جئْتهم وفي حنينك إلى لبنان فيروز وسعيد عقل وزكي ناصيف وأمين معلوف كلمات عهد تنطـق وتقول: "**إنّ لبنان الذي صنعه الجيل السابق لا يشبه إلاّ ديكور المسرح و عملية البناء لا تبدأ مـن الصفر، بل من الوضع القائم**"[٣٥].

جئت تهمس في آذانهم، وبأعذب ما يكون، ما قاله المطران غريغوار حـداد: " **إنّ ملكـوت الله** فيّ **يشبه فيلمًا، أنا فيلم أي سلسلة لحظات اجتماع** بين **الأبدية والزمن، حوار مرتجل لا يمكن توقّعـه، حوار** بين **حرية الله وحريتي...**"[٣٦].

جئْتهم وفي سرك أمانة شيخ جليل يحكي عن "الآخر"، عن "**أنه ليس مجرد صورة لنا وإسقاطًا لذاتنا** في **الخارج. إنه ذاته. إنه مختلف ومتعذّر الاختزال، وقبوله يتم كآخر**"[٣٧] .

جئْتهم، في ذاك المساء، وكادوا ألا يعرفوا وسط رعشة جسدك، وخفقان قلبك، ونـبض عرقـك، ولهيب نارك، ونسيم روحك، تفصيل نبرة صوتك. أهي صياح؟ أو صخب؟ أو استهلال؟ أو جلبة؟ أو رنين؟ أو حشرجة؟ احتار الجميع ماذا كنت تعني بكلامك عن لبنان. ووجدت الجميع يتجـه صـوبي مستنجدين بتفسير، فهذا يسألني: هل نحن أمام فيلم المصير؟ أو برنامج "الدنيا هيك"؟ ولم يدروا بأنني أنا أيضا لم أفهم شيئًا مما قلته. مضت على الحادثة، التي تركت فيّ الأثر العميق، مدة من الزمن. بعدها بعث أحدهم إليّ رسالة غريبة تقول: "...أتوجّه إليك ولا أدري لماذا أنـت بالـذات، إنّمـا اعـذريني إن حمّلتـك ثقلي... ضعتُ بين التحديدات والتصنيفات، علمًا بأنّ المهارات المطلوبة، الواضحة والمحسومة عند رجال الفكر والعلم، في التوثيق وهو تخصّص الجامعي، تندرج من إتقان اللغات الأجنبيّة إلى القدرة على التحليـل والاستنتاج فالرغبة بالتعلّم المستمرّ".

وماذا تعني، يا ترى، تلك الكلمة التي وضعها في خاتمة رسالته "**الرحيـل**"، واحـترتُ كيـف أصـنّفها وأين. تلك الكلمة التي تشبه "**حصاة ألقيـت علـى صـفحة الميـاه، فـذهبت بعيـدًا في دوائـر واسـتمرّت في**

[٣٤] جحا مصطفى، **جزيرة الكلمات**، الجزء الأول، الطبعة الأولى، لبنان، ١٩٨٢، صفحة ٢٢٠.

[٣٥] بولس الخوري، في **سبيل أنسنة الإنسان**، المطبعة البولسية، جونيه-لبنان، ١٩٩٧، صفحة ١٦٦.

[٣٦] حداد غريغوار، **تأملات روحية ١٩٥٩-١٩٦٨**، الطبعة الأولى، مطابع دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، الحب والمحبة، صفحة ٩١.

[٣٧] بولس الخوري، في **سبيل أنسنة...**، صفحة ٨.

الامتداد والتفاعل طويلاً بعد أن كانت الحصاة قد استقرّت في القعر"[٣٨]؟ والكلمات لها وقعها، مهما صغرت أو كبُرت. والدليل على ذلك، أنّ " **أغنية Happy Birthday، لا يزال ورثتها يتقاضون عنها حقوق المؤلّف حتّى اليوم**"[٣٩]. إضافة إلى أنّ "**أصغر نار قد تحرق غابة كبيرة**"[٤٠].

عندها رحتُ أبحث في القاموس علّي أجد تحديدًا لغويًّا، يشفي غليلي وأسئلتي التي تشبه بسرعتها الريح الهوجاء، ووجدتها تعني "الاسم من الارتحال، وارتحل أي انتقل". هذا ما حمله لي تفسيركلمة "**الرحيل**".

احترتُ أكثر فأكثر كأنّني "**وسط عاصفة قد مزّقت ثوب أحلامي، وتركتني عارية، ملقية على سريري، مثل عاشق مجنون لا عهد له بعشيقة**"[٤١].

فمَن قال إنّ "**الموت لا يكون إلاّ في العينين المغمضتين والقلب الساكن والجثة الهامدة**"[٤٢] قد أخطأ في التوقيت والتحديد والتصنيف، فللموت أكثر من وجه. "**فالأعمى ميت يتأمّل، والأصمّ رجل توارى عن الدنيا، والمقعد رجل تجاذبته الحياة والموت واقتسمتاه**"[٤٣]. وأنا كنت ذلك "**الشاعر الحالم الطموح الذي خذلته الحياة وهدمت له عروش أحلامه**"[٤٤]. أنا هو "**الميت الأكبر الذي لا يعلوه ميت**"[٤٥].

وأخيرًا، "**سأغمض عينيّ ثمّ أفتحهما فجأة لينطبع ذاك الضوء الجميل في مخيّلتي حتّى أسترجعه في الليل لوحدي قبل أن أغفو**"[٤٦]، وأسمعه يهمس في أذني : "**إلى من مسواك في قلبي فإن غبت عن عينيّ فأنت في القلب فأين تغيب؟...**"[٤٧].

لماذا يريد الرحيل ولم يمضِ على قدومه سوى القليل؟".

ربما الآن تدرك لماذا كتبتَ لك أقول نقلاً عن مصطفى جحا: "**مسلّمات عمرها من عمر الإنسان كيف نهدمها** في **ليلة واحدة أو ليلتين؟!... مذاهب وأديان عفّنت** في **أدمغتنا، كيف نستطيع أن نتطهر منها، ونتحرر،** في **كتاب أو كتابين؟... لكي نهدم نحتاج إلى زمن ليس أقصر من زمن البناء وترسيخ الأوهام...**"[٤٨].

---

[٣٨] لطّوف الأب يوحنا أنطون، **الأفاويل أي: الكلام على الآخرين**، طبعة ثانية، بيروت، ٢٠٠٣، صفحة ١٢.

[٣٩] الزغبي المطران الياس، **مجموعة فريدة من النكات والطرائف التاريخية من جميع بلاد العالم**، المطبعة البولسية، جونية-لبنان، صفحة ٢٩٨.

[٤٠] يعقوب ٣: ٢-٦.

[٤١] كواست ميشيل، **حدثني عن الحب**، الطبعة الثّالثة، مطبعة اليازجي، دمشق، ٢٠٠١، صفحة ٢٠. (بتصرف).

[٤٢] الراعي راجي، **عصير الكرمة**، سنة ١٩٤٩، صفحة ١١٤.

[٤٣] المرجع السابق، صفحة ١١٤.

[٤٤] المرجع السابق، صفحة ١١٤.

[٤٥] المرجع السابق، صفحة ١١٤.

[٤٦] بركات هدى، **حارث المياه، رواية**، الطبعة الأولى، دار النهار، بيروت،١٩٩٨، صفحة ٤٣.

[٤٧] **ديوان الحلاّج**، الطبعة الأولى، دار الجديد، بيروت، ١٩٩٨، صفحة ١٧٧. أعده وقدم له عبد وازن.

[٤٨] جحا مصطفى، **جزيرة الكلمات**، الجزء الأول، الطبعة الأولى، لبنان، ١٩٨٢، صفحة ٢١٨.

أرجوكم ابحثوا لي عن شخص يدافع عني

من مكاريوس إلى كثيرين

هل تستطيع أن تضع إصبعك في كفّك وتفرك؟ قال الأول، بصوت رصين يوحي بأنّ ثمّـة اختبـار علمي يجريه مع صديقه والغاية منه أن يوصله إلى نتيجة محددة.

أما الثّاني، فبدون أن يجيب بكلمة نعم أو لا، مد كفّه وأخذ يفرك بطن كفّه بسبابة يده اليمنى. ومـا أن باشر بالعملية، حتى سأله الأول، بكلّ رصانة، بماذا تشعر؟

ففكّر الثّاني، للحظات. إنه انتقال الحس من الكف إلى الدماغ. قال بكلّ جد وكأنه يريد أن يفهـم صديقه بأنّ إجابته صحيحة. أما الأول فقاطعته، وبرصانته الأولى، قال: ألا تشـعر بـأني أسـتهبلك؟ وانفجر بالضحك إلى ما نهاية. وفي غضون ذلك، وقف الثّاني والذهول ظاهر على وجهه، وبـدون أن يجيب بكلمة أدار ظهره وخرج متعجبا من هذه السخرية ومن هذا المزاح الذي إذا دلّ على شيء فهـو يدلّ على سطحية الصديق الغريب الأطوار.

أليست قصة كهذه تعكس أمام عينيك واقع الحياة الساخرة التي طالما عشناها ونعيشها كلّ يوم؟

والغريب في هذه الرواية هو الذهول من جهة، والسخرية من جهة أخرى. والنهاية الـتي تنسـيك البداية الرصينة والتي كانت وكأنها لم تكن أبدا. لأنّ جميع ما ستتذكّره من هذه الأمثولة هـو انفجـار الضحك الذي يجعل منك سخرية لمَ لم تكن تعلمه من قبل.

أليست هذه شيمة من شيم حياتنا اليومية التي نحياها بجد ورصانة. وعندما نصل، فجأة، إلى النهايـة التي تكون، في جميع الأحوال، غير متوقّعة، ننذهل وننسى أنّ ما بدأناه كان جميلاً ورائعا. وكيف لم يبق منه سوى قهقهة ضحكة ساخرة تلطمك على خدك الأيمن فتضطر إلى أن تحول لها الأيسر.

وتحاول، من جديد، أن تنسى النهاية لتبدأ مجددا بخطوات ستسبقك وتكون هي أيضا غـير متوقّعـة وغير واضحة، وتنتهي بالطريقة عينها.

عجب منك، أيتها الحياة، لأنك بضربة واحدة تفقدينني لذّة طعم البداية الحلو، وتجعلينني أمثولة مبكية ومضحكة في آن معا.

ويقول لك، بعينين باردتين وقلب قد تصلّب، هل تعيد اللعبة؟

وبين نعم ولا تجيب: لا أعرف، وكأنك تريد فعلاً أن تبدأ من جديد إلاّ أنّ قوة في داخلك تمنعـك. ولن تعرف، في النهاية، إذا كنت تملك من الجد الشيء الكثير لتدخل اللعبة بقلب من حديد.

وتمضي الأيام، بين حنين وأنين، وذكريات وضياع، وآهات وزفرات، وتفقد الشهية للطعام لأنّ جميع أنواع الأطعمة يتم تحضيره بعناء كثير وتأكله بدقائق معدودات لتعود من جديد.

ويأتيك أنسي الحاج ليسأل: "**ماذا صنعت بالذهب؟ ماذا فعلت بالوردة؟**"[٤٩]. وليس لديك من جواب سوى ذاك الذي يجعل من الذهب ترابا ومن الوردة رمزا للموت، لأنهم يضعون على ضريحك إكليلاً من ورد هو نفسه يهدونك إياه يوم عيدك، فتسأل بحسرة: لماذا تريدون عذابي؟ فيجيبونك: امضي بسلام، ها نحن نودعك بدموع وبكاء.

وتعرف فجأة كم كان حضورك ثقيلاً وغيابك أثقل. وتطوي صفحة وتستلقي لترتاح، فيأتي من يأخذ مكانك في حين أنّ بصمات شفتيك لا تزال عالقة على فنجان القهوة.

وتصحو لتراهم يدعونك إلى احتساء فنجان آخر من القهوة، لتشربه بسرعة، وتقرأ فيه، مجددا، عنوان عذاب لقصيدة لم يفهمها أحد، ولكلمة قال المسيح يوما وعبرت مثل غيمة صيف: "**أريد رحمة لا ذبيحة**"[٥٠].

وقبل أن تقول: "**اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون**"[٥١]، يرشقونك بوابل من كلمات هي جميعها أسماء أدوية مهدئة للأعصاب، فتقول مع زهير بن أبي سلمى:

سئِمت تكاليف الحياةِ ومن يعِش ثمانين حولاً لا أبا لَك يسأمِ[٥٢]

وما هذا سوى قراءة منقّحة لعبارات تنطق بها عيونهم بدون أصوات، ومضمونها لوم وعتاب، فتدرك أنك كنت الجزء المظلم من القمر.

وتسير وحيدا، تحت ضوء النجوم، تبحث عن حب وتفتش عن لحن، ويكون حالك كحال الذي يصفه كتاب الحكمة قائلاً: "**أبصرته الشعوب ولم يفهموا أمره**"[٥٣]. فتترك مكانك لآخر، والآخر سيترك مكانه لآخر غيره، وكذلك الأمر مع الآخر الجديد وإلى ما لا نهاية.

ويجمعكم الدهر، من جديد، لتشربوا نخب الأيام السالفة، فترفع كأسك معهم، وتتضارب الكؤوس، فتقول معهم بصوت جهير: كأس الشباب وكأس المعرفة، وتعلو صيحة الجميع: لعن الله تلك الساعة.

ويذهب الجميع كلّ إلى حاله، ويبقى الحب ليحرم أجفانك النعاس، فتصيح وعيونك مغطّاة بستار من دمعات: ليت الذي كان ما كان. أرجوكم ابحثوا لي عن شخص يدافع عني.

---

[٤٩] الحاج أنسي، **ماذا صنعت بالذهب؟ ماذا فعلت بالوردة؟**، طبعة ثانية، دار الجديد، ١٩٩٤.

[٥٠] متى ٩: ١٣.

[٥١] لوقا ٢٣: ٣٤.

[٥٢] راجع الموسوعة الشعرية المعتمدة...

[٥٣] راجع المرجع في "هذا هو الإيمان".

سأرحل

ميراي

كانت ليلة من ليالي كانون الثّاني عام ١٩١٤. جيوش من الغيم، في الخارج، آتية من عالم بعيد تنذر بالويل، وتحشد جحافلها موجهة إياهم صوب كلّ اتجاه لتعلن حربها الشتائية. الطـائرات والـدبابات والمدافع والقذائف بدورها تزيد من حدة صوت قصف الرعد ولمعان سيوف البرق.

وأقبلت جدتي العجوز حاملة صندوقًا خشبيا قديم الطراز، وجلست بقربي، وفتحـت صـندوقها، وتناولت منه ورقة وراحت تتلوها على مسامعي: "سأرحل وقبل أن يخطفني البعد سأقول لك (كِ) مـن أنا".

سأحكي لك (كِ) عهد طفولتي، حداثتي، شبابي وشيخوختي. وسأقص عليك (كِ) قصـة وجـودي وموتي، سعادتي وشقائي، فرحي وسلوتي. فأنا "**كنت بالأمس سرابًا، حكاية** في **بال العجائز، رواية** في **كتاب ألف ليلة وليلة**"[٥٤]. وعلى هذه الصفحات دونت مذكّراتي، وفي هذا الصندوق أيضا صـوري، أغراضي وكتبي، وأوراقي القديمة التي أتلفها زمني الصامت. وفيها خصوصا تحديد لأناي وسـط هـذا العالم الذي لطالما اعتبرته غريبا.

سأبدأ. سأخطو. سأنطق وأتكلّم وأردد ما قاله هرمان هس في تمهيد قصته: "**لكي أروي حكـايتي يجب أن أبدأ من بعيد، أن أعود القهقرى إلى أولى سنوات الطفولـة، وإذا اسـتطعت إلى الجـذور العميقة التي جئت بها إلى الوجود، وما تزال تصنع حياتي دون أن ألمسها بوضوح**"[٥٥].

كنت أصغي إليها مسرورة وقد زال عني الخوف بحضورها، وإذا بكارثة أكبر تقع، فها إنّ جـدتي حنت رأسها على الأريكة مستسلمة لرقاد أبدي مفاجئ.

تسمرت في مكاني وجعلت أترقّب أن تصحو من غفوتها لتعاود تلاوة تلك القصـة الغريبـة علـى مسامعي. ولكن عبثًا طال انتظاري فجدتي كانت قد فارقت الحياة.

ومضت الأيام والسنون وصدى صوت الجدة لا يزال يدوي في تلك الصالة الكبيرة حيث عهـدنا أن نتلاقى لنتكلّم عن جميع الأشياء وحتى عن سبب قتل سقراط نفسه، وبقاء المعري أعمى، وعـن ذنـب الفارابي. وعن ألف لماذا؟ ولماذا؟ من هنا وهناك.

ولكن كيف لم أتساءل يوما عن سبب قراءتها لي تلك القصة الغريبة في تلك الليلة الصاعقة؟ ومـاذا عساه حوى صندوق جدتي؟ ولماذا أمره عجيب غريب؟

ومرت أيام كنت خلالها بين أخذ ورد. وفي النهاية حسمت أمري وتجرأت وصعدت العلّية وفتحت ذاك الصندوق. وإذ بيدي تقع على ورقة كانت الأولى، فخطفتها سريعا وإذ بخطّهـا مـألوف لـدي.

---

[٥٤] جحا مصطفى، **جزيرة الكلمات**، الجزء الأول، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، صفحة ٢٨.

[٥٥] المرجع السابق، صفحة ٢٣٥.

ورحت أقرأها: "أمضيت شهرا، على وجه التحديد، أحسب حساب هذه الفتاة وتفكير تلك، وأخاف على مشاعر هذه وعلى أحاسيس تلك. كنت أخاف عليهن مني، ووددت أن يبقـوا هـم في موقـع الصدارة. قابعة في الزوايا كنت أعزي نفسي من ابتسامهن وضحكاتهن، وكنت أنصـت إلى خفقـان قلوبهن ونبض عروقهن، في الصحو وفي الكرى. وقتلت نفسي لأحييهن. والآن أدركـت، ولا أدري إذا كان الأوان قد فات، أنّ موعد انطلاق قطاري قد حان. لقد أخطأت في اختيار جلجلتي. صـار ألهـي موتا، في تلك الآونة، وقد بدا "**شأني شأن جواد المركبة، الذي يجعل الناس في عربته، لكي يتمتعوا هم بالربيع**"[٥٦].

في هذا العالم حيث "**كثر البكاء وقلّ الحزن، تكاثرت الجراح وقلّ الألم، تكـاثرت الجنـة وقـلّ الموت، وكذلك بالنسبة لوفرة الضحك دون الفـرح، والإنشـاد دون المسـرة، والـرقص دون النشوة...**"[٥٧]. سأبقى تلك الفتاة التي تعودت أن تقوم ما تراه معوجا، وتمكّن ما يبدو لها متداعيا، وأن ترمي الأقنعة المخبأة وجوه القتلى. اعتبروني الحمامة الدخيلة في سربهم، وشبهوني بالفتاة الشقية في قصة "**الشقراء والدبب الثّلاث**". غير أنّ الذنب كان ذنبي فأنا من أخطأ في اختيار جلجلته.

وبدأت أقرأ الورقة تلو الأخرى إلى أن لمحت عيني توقيع أمي. إنه خطّها. إنها هي.

وقد كنت، منذ صغري، ألاحق جدتي، رحمها الله، لتحكي لي عن أمي. أمي التي حلمت برؤيتـها، وسماعها، ولمسها والارتماء في أحضانها. لكنها كانت في كلّ مرة تؤجل ذلك، وتعيد علـى مسـامعي كلمات قد حفظتها غيبا: "في الوقت المناسب، يا بنيتي".

الآن فهمت كيف ولماذا فارقتني. الآن عرفت من أنتِ، ولماذا أنتِ؟ لأنك كنتِ أنت، أنت، بكـلّ حقيقتك في كلّ مكان وزمان. أحبك يا أمي. اشتاق إليكِ.

[٥٦] من كلمات الفنان فانسنت فان غوج إلى أخيه تيو. راجع المرجع السابق صفحة ٢٥٧.

[٥٧] من كلمات جورج شكر الله في كتابه رقصة في العواصف. راجع المرجع السابق صفحة ٢٢١.

معضلة العبثيين

من مكاريوس إلى ناطور الحظّ

هذه قصة من قصص أحد الأباء المعذّبين. رواها إليّ شخصيا وهو أستاذ جامعي.

ما الأسهل؟ أن تغمض عينا وتفتحها لترى نفسك غنيا ومرفّها وعائشا في قصـر ولـديك الخـدم والحشم؟ أم أن تتعب وتجد وتعمل العمر كلّه من أجل بناء مستقبل أفضل لك ولغيرك؟

على الرغم من صعوبة هذا الطرح ومشقّة الإجابة على هذين السؤالين، أحاول أن أسير معك الدرب خطوة خطوة.

لا شك بأنّ الفرضية الأولى أسهل بكثير شرط أن تكون احتمالية تحقّق أحلام اليقظة أمـرا قـابلاً، بشكل دائم، للتحقيق. وفي حال لم تكن أحلام اليقظة تحتمل فرضية "كن فيكون"، تصـبح الفرضـية الأولى أصعب وأقرب إلى المستحيل. ولا شك، أيضا، بأنّ الفرضية الثّانية أصعب، علـى الـرغم مـن إمكانية تحقيقها ولو على المدى البعيد. إلاّ أنها تصبح سهلة وقابلة للتحقيق بسرعة أكثر إذا لم تكن من العبثيين الذي يعيشون حياتهم وهم ينتظرون الحصول على فانوس علاء الدين.

أبدأ معك، أيها المحبوب، من حيث انتهيت وأنت لا تدري بأنك قد انتهيت إلى غير عودة. ولا تخف عندما أستعمل معك لغة الجزم هذه، وفيها من التأكيد أكثر مما يحق لشخص مثلي أن يتجرأ ويهين.

بين طيات الكتب جلست تفتش عن الحقيقة وهي بين يديك. وسرت الدرب، ولا تـزال تسـيره، طويلاً، من الفلسفة إلى علم النفس، ومن اللاهوت إلى علم الكلام، ومن علم البلاغة إلى علم الكـائن، ومن علم الكائن إلى علم الأحياء، وإلى ما هناك من علوم وأبحاث ودراسات، وجميعها عظيمة في حـد ذاتها ولكنها لم تفلح معك بشيء، ولم تستطع أن تبدل فيك ما هو مفقود بالأصل من حيث جوهره لا من حيث وجوده، ومن حيث علّته لا من حيث صيرورته. لم تستطع أن تبدل فيك شـيئًا لأنّ الحيـاة أبسط مما تقرأ ومما تحاول أن تجد. وانطلقت من الميثولوجية الإغريقية إلى الفلسـفة اليونانيـة بجميـع أعلامها. ومن المسيح إلى المسيحية بكلّ فكرها ولاهوتها وآبائها. ومن الفلسفة العربية إلى النهضة الغربية مرورا بالعصور الوسطى ومفكّريها. ومن هيجل إلى الوجودية ومدارسها. ومن نشأة العلوم الحديثة إلى عصرنا الحالي. وبين وفي جميع هذه الحقبات وأعلامها، والشخصيات وفكرها، والعلوم ورواداها، نسيت أنك تفتش عن شبه صورة ورسم لشخصيتك التي لا شبه لها ولا شكل. فجميع العلوم تفشل وفشـلت عندما انتهت إليك.

لقد اخترت الجواب على جميع أسئلتك الجوهرية والاعتراضية. لقد اخترت المهدئات جوابا نهائيا على جميع الأسئلة والطروحات. وتهت في أزقّة علم النفس وعلم التحليل النفسي وعلى هامشه علم الفلـك والتبصير والتنجيم وقراءة الكف والأبراج.

أيها الغريزة الذي يعيش في شبه جسد. لا تتعب ولا تفتش، فالجواب على جميع أسئلتك سـبقك إلى حلّه كثيرون غيرك ألا وهو الغريزة الحيوانية التي وجد من يعمل من أجلها ويسخر في سـبيل نجاحهـا الغالي والرخيص. ولا أريدك أن تظن بي أني أقصد الغريزة الجنسية، لأنها أسمى وأرفع مـن أن أتكلّـم بشأنها معك أنت من أصوله لم ترتبط يوما بالعالم المحسوس وما فيه من مقدسات. نعم مقدسات، هـذه الكلمة التي تبغضها أشد البغض.

إلى زوايا ذلك البيت وفي حناياه عد وفتش عن شبه صورة لابن لا أب له ولا أم. ألم يقل لك أحـد إنّ الأمومة الحقيقية لا تبدأ في الطنجرة؟ وألم يعلّمك أحد أنّ الأبوة الحقيقية ليست في الإنجاب والعمـل وتكديس المال من أجل تعليم أشباه الأبناء؟ من أحاكم أنت أم هم، وقد منعت من الدينونة، والدينونـة جريمة حرمها المسيح.

بين أشباه البشر ابحث وفتش عن رسم لك ليحملك إلى عالم الحقيقة وقد غاب عنك. ألم تعرف بعد لماذا الآلهة اليونانية كانت تلد وتولد؟ ألم تدرك بعد لماذا ولد الله ابنه المسيح قبل كون العالم؟ ألم تفهـم بعد لماذا تمحورت كلّ طروحات فرويد حول مفهوم الأبوة والبنوة؟ ماذا أقول لعبثي مثلك؟ وكيف هو السبيل إلى إقناعك بأنّ المسلّمات لا يمكن البحث فيها ولا التدقيق. فأن تكون ابنا هذا علم قائم بذاتـه قد أهملته ونسيته. وأن تعيش من أجل أن تصبح ابنا هذا هدف الحياة ككلّ.

وتأتي لتكلّمني عن تجريد الأفيلية أو يوحنا الصليبي، ولتبحث معي رومانسية الصليبي. وما علّموك أن تطلق عليه اسم إباحيته في شعره وعشقه للألوهة. وهؤلاء جميعا لم يروا من العظماء سوى مـا نسـبوه إليهم من الغرائز التي سخروها لتحمل صلبان مؤلّفات العظماء.

لكلّ شيء وقته، أيها المحبوب، لكلّ شيء وقته هذا إذا كان للوقت عندك من وجود أو قيمـة؟ ألم تنظر بعد في المرآة لتعرف بأنّ وجهك أصبح يشبه وجه صور الشيطان التي صـورها فنـانو القـرون الوسطى؟ ألا تجد معي أنّ هذه الصور فيها من الحقيقة بقدر ما فيك من مرض العبثية؟ ألا ترى معي بأنّ من البشر من صورهم أشد بشاعة وشناعة من صور الشيطان؟

وهكذا تدور في فلك البحث والبحث المضني إلى ما لانهاية. وإذا عدت إلى ذاتك تدرك بأنّ جميع ما قيل من قِبل هؤلاء العظماء يجد منفذًا إلى الحقيقة، لأنّ الحقيقة لم تكن تعني يوما ما تزعم به ناقلاً عـن الأديب الكبير جبران خليل جبران :"**أولادكم ليسوا لكم، أولادكم أبناء الحياة**"[٥٨]، وجبران مـن دم أمثالك بريء. ويا ليتك أكملت النص أو حتى الجملة، أو فهمت الفرق عنده بين "**أولادكم**" و"**أبناء**"، وفهمت ما لم تقرأه بالعمق وهو أنّ "**الحياة لا تقيم** في **منازل الأمس**". فالحياة لا تقيم في منـزل لا عماد له، والحياة لا تحتاج إلى مثلك ليكون لديها أبناءً وتدعي بأنها قد أنجبت. ألم تفقه بأن الحيـاة لا تعرف أن تنجب إلاّ الحياة؟ والبنوة للحياة في مفهوم المفكّرين تحمل معنى النمو والشباب والشيخوخة والعبور إلى حيث تعتقد بأن لا حياة. فهل خلقت لكي تموت؟ ألم تقرأ مثلاً أوريجينوس ونظريتـه عـن

[٥٨] **المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران المعربة، الأبناء**، طبعة جديدة، لبنان، صفحة ٨٨. تعريب الأرشمندريت أنطونيوس بشير.

خلود النفس وهو الذي قال ما لم يقله أحد بعد؟ ألم تعرف مثلاً بخلـود الحيوانـات ونظريـة النمـو والارتقاء؟ وماذا بعد، أيها المحبوب؟ منذ سنين عديدة وأنا لا أزال أقرأ وأتعلّم، وأعترف أمامـك بـأنّ الحياة هي المدرسة التي نهلت منها أفضل العلوم وأعظمها. وهذا يقودني إلى أن أقـول لـك: إذا أردت البحث عن الحقيقة، فتش عنها في الأمثال الشعبية ففيها من الحكمة والعلم أكثر مما يدعيـه أسـاتذتك النجباء. هل سمعت يوما بالمثل القائل "**الحياة مدرسة**"؟ فإذا كنت تزعم بأنك ابن الحياة وتريد أن تكون فعلاً ابن الحياة، فلماذا لا تترك الحياة تعلّمك ولو درسا واحدا؟ أم أنك تريد أن تعطي دروسا للحيـاة عينها؟

أجيبك، أيها المحبوب، وقد أحرقت قلبي منذ سبع سنين ولا تزال. أين كنت حين وصلت "الحيـاة" إليك؟ ألم تصلك الحياة بواسطة أب وأم؟ ابحث الآن عن الأبوة والأمومة، عن بنوتك الضائعة. هناك في تلك الغرفة المظلمة جلست تتمرن على المداعبة وممارسة الجنس، كما يحب أن يسميها أبناء جيلك، ومن قال لك إنّ الجنس يمارس؟ لم يكن الجنس ممارسة أبدا لأنّ التعبير "ممارسة" يطلق علـى الهوايـات أو شعائر الدين، وكلاهما أبعد ما يكون عن اتحاد كائنين. اسمع إذًا هذه القصة، وخذ منها العبر إذا كنت تستطيع.

كنت في يوم من الأيام أسير في طريق جبلية، وكنت أحمل في قلبي من الحزن والغم ما تتعب عن حمله الجبال. قلت في نفسي اجلس واسترح قليلاً. وهكذا كان، وجلست على صخرة قريبـة مـن حافّـة الطريق. وبدأت أتأمل بالسيارات التي تعبر أمامي. وفيما أنا غائص في بحر من الأفكار، تأخـذني هـذه وتعيدني تلك. وقفت أمامي سيارة ونـزلت منها امرأة، وتوجهت نحوي بالكلام، قالت: أرجوك، إني أبحث عن شخص يدعى فلان، وكنت أنا. فسألتها ماذا تريديني مني لأني أنا فلان، ومن دلّك علـي؟ فأجابت: لدي مشكلة، وقد سألت الناس هل تعرفون شخصا يستطيع أن يساعدني، فأوعزوا بي إليك، وذهبت لرؤيتك حيث تسكن ولم أجدك، واستخبرت فقيل لي إنك في هذه النواحي. وها أنا أمامـك. فقلت لها تفضلي فكلّي أذنٌ صاغية. وبدأت.

كنت أنت في بطنها، وكانت حبلى بك، وأتت إليّ لتطلب مني إنقاذها من ذويها الذي إذا عرفـوا بحبلها سيقتلونها. فلو كنت مكاني، ماذا كنت لتفعل. هل أنت ابن الحياة؟ ما رأيك الآن؟ هل لا تـزال تبحث عن إجابة على أصعب الأسئلة الوجودية والمصيرية؟

غامرت بكلّ شيء في سبيل الحفاظ عليك، ورضيت بأن تكون لي ابنا وأنا لم أنجبك، وحملت وزرك مذ كنت جنينا. نعم، لم أتركها ترحل. نعم، لقد عرفت إلى من تأتي ليكون أبا لابنها. ويا ليتها عرفت أن تكون أما صالحة لك.

ومرت السنوات تلو السنوات، وأنت في بيتي وفي قلبي. وأصبحت كلّ شيء في حيـاتي. أصـبحت أمسي ويومي وغدي ومستقبلي. واعتبرتك هدية من السماء، وباركتك وصليت وأصلّي من أجلك. ولم أترك سببا من أسباب الراحة والسعادة وفعلته لكي تنمو بخير وسلام وهدوء. وأدخلتك أفضل المدارس،

الخ. بكلمة، جعت لأطعمك، وعطشت لأسقيك، وشخت لتكبر، وافتقرت لأغنيـك. ولا تظـن الآن بأني أمارس معك لغة رد الجميل واستمالة العواطف والترتّي والشفقة.

هل أنت ابن الحياة؟ الحياة يا صغيري لا تقيم في منازل الأمس المظلمة. فإذا كنت تفتقد إلى نوع من العاطفة لم تجده عندي، فهذا لا يعني أنّ العبثية الهوجاء هي المدرسة الوحيدة لتخرجك؟

ما الأسهل؟ أن تكون قد مت قبل ولادتك؟ أو أن تكون أتيت إليّ وعشت؟ هل تنطبق الآن هـذه الفرضية بشقّيها، أم لها طريق ثالثة؟ أظن بأنّ لها طريقًا ثالثة وهي: ماذا كان ليحلّ بك لو رمـت بـك أمك في علبة نفيات؟ أظن بأنك تفضل هذه الفرضية الثّالثة؟ التي الجواب الوحيد عليها هو العبثية وسواد الوجود.

والآن هل تود التفتيش عن أب من لحم ودم، أو عن أم من شهوة وغريزة؟ أم تفضل البقـاء ضـمن عبثية جدليتك التافهة؟

لن يجذبك الحديث عن اللاهوت من بعد، ولن يأخذك الكلام بالفلسفة في ما بعد، ولن يشبع شـيء في العالم عطشك إلى العبثية. فكيف تريد مني أن أساعدك على التحول من الحياة إلى المـوت وأنـت مائت؟

هلم انظر وافهم ما معنى أن يكون تفسير التفسير تفسيرا لحادثة، جرت منذ ألفي عام، عقيما وبدون جدوى. فلو كان "أبناء الحياة" يدركون ما معنى "الحياة" لكانوا عرفوا بأنّ من يصلبوه هو رب الحيـاة، وهو الذي بذل نفسه من أجلهم "**لتكون لهم الحياة، وتكون بوفرة**"[٥٩]. فلو كانوا فهموا ماذا تعني كلمة "بوفرة" لأدركوا أنّ الله يستطيع أن يصنع من هذه الجارة أبناءً "**للحياة**"، لأنّ الحياة أبعد وأرفع وأسمـى وأقدس من أن تكون أنت ابنها أيها العبثي الجاحد.

[٥٩] يوحنا ١٠: ١٠.

مشروع طور البناء

ميراي

عندما يتحطّم كبرياؤها وعنفوانها، وعندما تجرح الكلمات اللاذعة فؤادها، تضيع منـها الأحـلام والأماني لتغدو وكأنها من ماضٍ لا يلبث أن يعود إليها بالذكريات من عالم الصمت والسكينة.

في ذاك البهو الصغير تقرع يداها الضعيفتان الهزيلتان على صدرها لعلّ إنسانا يخرج ليمسح الـدمع من مقلتيها ويمحو الغربة عن قلبها، ويؤنسها في وحشة روحها. فالوجع الرهيب يكاد يمزقها. والشرود يكاد يهزمها. ولهيب النار يكاد يحرقها.

تقبع وحيدة لتتأمل ذاتها، فتحس، للحظات عابرة، بجسدها يهوي من أعلى إلى أسفل، ويسقط ليقبل الأرض. وبين الهنيهة والأخرى تكاد تقرأ، من خلال البلاط اللامع، أنّ غصة تخنق عينيها. وتشـعر في ضلوعها بحسرة ممزقة. فبعد أن كان مفروضا على قلبها أن يتزين بزينة من حجـر، وبعـد أن كـان الإحساس بالعدم قد تملّكها، ها هي اليوم قد ضربت صفحا عما كانت تسميه تخطّي الذات في سـبيل الوصول إلى الآخر. وفي سبيل الإبقاء على رونق جميل، أو حب حق، أو عطاء غير محدود.

وإذا أمعنت النظر أكثر فأكثر، فستلاحظ شفتيها تردد بعبرات ترتجف: يا أيتها النفس الحقيرة والبشعة والجشعة والفجة والحمقاء والفقيرة لماذا الحب ما دامت الحروب تشعل نيرانها وتعلن بلسانها اللاهاب: لا للحب.

وتتعارض الأحداث هنا وهناك، وتجدها تقول: نعم للحب، تارة، وللحب وحده نعـم، وأخـرى، وبلهجة ساخرة، لا الحب، وألف لا.

ووسط هذه الضوضاء والضياع تندهش إذ ترى أنّ ثمّة من يستجيب له قلبها وكأنّ مقولـة جـبران خليل جبران تتحقّق في ذاك القبو القديم وفي تلك الساعة المتأخرة من الليل: "**القشرة الصـلدة الـتي تحجب الثمرة يجب أن تتحطّم حتى يبرز قلبها من ظلمة الأرض إلى نور الشمس**"[٦٠]. إنه صوت مـن عالم آخر. ولقد أتت اللحظة الحاسمة للاختيار الصعب والصارم والغريب. وتبدد كلّ ضباب.

فماذا عساها تقول؟

نعم إنه نور الشمس الآتي من ذاك الأفق البعيد. إنها زقزقة العصافير. إنه خرير المياه. إنـه حفيـف أوراق الخريف الصفراء. إنه تساقط المطر على السطوح في الليلة الخرساء. إنها لحظة المغيـب، لحظـة

[٦٠] جبران خليل جبران، **مؤلّفات**، المجموعة الثّانية، مكتبة صادر، دار جبران، بيروت، ١٩٨١، النبي، صفحة ٤٠.

الزوال المشوش بهموم الطبيعة وأعبائها على الكون. وقبل أن تأخذ القرار، إذا بقرار من مجهول يأخـذها ويرفعها. لقد فارقت الحياة.

لقد كان وداعها لدنياها ساكنا، وفيه من الصمت ما يثير الغرابة والاسـتغراب. ومـع ذلـك، لم يكترث أحد، ولم يحرك أحد ساكنا، كما هو المعتاد. رحلت، وفي موتها حياة لـمن لا يزال يتخبط في أتون تقرير مصيره. ولـمن لم يذق بعد من الحياة وجع الليالي وألم العتمة ولوم الأيام. ولـمن لم يدرك بعد أنه "مشروع طور البناء".

الحضور المحب الدائم...

من مكاريوس إلى روح عماد رزوق

في ذلك اليوم، تجاسرت واقتربت من قبره تاركًا أمامه هذه الرسالة: "...خمس سنوات وأنت الحضور المحب الدائم.

خمس سنوات مضت، ولم تمض إلاّ في أعمار البشر، وفي سجلاّت المدافن.

خمس سنوات مضت وبركة صلاتك تظلّل أمي.

أناجيك يا ولدي، في كلّ وقت أُحدثك وتسمعني، تكلّمني وأسمعك.

مت... لتنال نعمة عدم الشيخوخة والهرم. رحلت لتبقى شابا شامخ الطلعة والطلّة.

كنت ملاكاً بحنانك وحبك وطيبة قلبك ...

أعود اليوم أدراجي إلى سبع سنوات خلت، لأتأمل في مرضك وألمك. أعود أدراجي علّي أفهم ما قد حصل. ويغيب الفهم عني، وتغيب الذكرى .

أحاول تذكّر أيام وساعات المرض والحزن والألم ولكني لا أجد شيئًا في ذاكرتي، فأنا لا أذكر مـن تلك الأيام والأسابيع سوى وجهك المشرق ودفئك اللطيف ونعومة كلماتك وعذوبة ابتسامتك.

معك أدركت أشياء كثيرة، أدركت أنّ الموت أكذوبة ووهم وأنّ ما يمضي من العمر لا يفوت إلاّ في هرولة التقدم الآلي وعصر اللازمن، وزمن الهبوط والاضمحلال والتضخم الغاشم.

كنت حقيقة احتوتها كذبة هذا العالم فلم تقو على الإبقاء عليك فانتفضـت ودمـرت ضـلوعها وانسحبت انسحاب العتمة أمام النور.

مت اسما، عمادا لبنيان صرح الأماني والمعاني.

كنت كنـزا سرقه العالم العلوي من بين أولئك الذين لا يعرفون تمييز الكنوز والجواهر.

كنت ابني... ولا تزال تبني في قلبي قصورا من أحلام وأمال لأولادي...

حبيبي عماد، كلّ ما في الكون يذكّرني بك، أيها الحضور الحاضر والمحاضر في مدرسة قلبي ووجداني.

بعد خمس سنوات ليس لدي ما أقوله سوى اشتقتلك يا عمري.

رحلة

ميراي

على "**جزيرة الكلمات**"[٦١] عما أبحث في "**رسائل راهب من الشرق**" عن "**نشيد الحب**"[٦٢] أو عـن "**وثائق هامة** في **خدمة كنيستنا الانطاكية**"[٦٣]؟

هناك حيث راوول فوليرو بشعاره "**لا** يحق **لأحد أن يكون سعيدًا لوحده**"[٦٤] ينذرني بـأنني في قلـب الجزيرة عالقة، وبأنه لم يبق أمامي سبيل للعودة إلى الوراء. حتى في كتاب "**مرفاة المجاني**"[٦٥] ما عـدت أعرف معنى لجزعي أمام "**يداي الفارغتان**"[٦٦]. فـ"**الويل** لي **إن** لم **أبشر**"[٦٧] بمن وصفه لي "**إنسان كرس نفسه للحب**"[٦٨] بـ"**الحب الكبير**". ربما أنا في حاجة إلى"**شفيعة المستحيلات**"[٦٩] لتنقذني فإني لا أريد أن أكون بعد الآن الفتاة "**المغمضة العينين**"[٧٠] ولا حتى "**الرسولة القديسة**"[٧١].

بجانب ذلك البئر عادت بي الذكريات إلى لقاء "**السامرية والرجل السابع**"[٧٢]، وأدركت عندها ولا أدري إن كان الأوان قد فات أنّ قضيتي واحدة من "**القضايا المعاصرة**"[٧٣] وأنها "**الأمر الأهم لكنيسـة الألف الثالث**"[٧٤]. "بين **دمعة وابتسامة**"[٧٥] كانت " **الأجنحة المتكسرة**"[٧٦] تهزأ من سـخفي وحمـاقتي وسذاجتي وتراني أستشهد من "**تاريخ أصفياء الله**"[٧٧] علّ قصتي تضحي "**من صميم الحياة**"[٧٨]. ولكـن أتراه "**يوم الدين**"[٧٩]؟

---

[٦١] جحا مصطفى ، **جزيرة الكلمات**، الجزء الأول، الطبعة الأولى، ١٩٨٢.

[٦٢] موراني جناديوس، **نشيد الحب، رسائل راهب من الشرق**، أوراق رهبانية ٦، مطابع الكريم الحديثة، جونية-لبنان، ١٩٧١.

[٦٣] جبور مكاريوس والخوري توفيق، **وثائق هامة** في **خدمة كنيستنا الإنطاكية، من صنع الانفصال سنة ١٧٢٤**، منشورات النور، مطبعة النور، ٢٠٠٠ .

[٦٤] برونشويلر فرنسوا، **فوليرو راوول، لا** يحق **لأحد أن يكون سعيدًا لوحده**، منشورات جمعية راوول فوليرو اللبنانية، مطابع يوني برينتنغ برس، العقيبة-كسروان، ١٩٨٢.عربه شحاده مـيلاد خليل.

[٦٥] **مرفاة المجاني**، الجزء الثّاني، طبعة ثامنة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٨. عني بجمعه وضبطه وتصحيحه الأب لويس شيخو اليسوعي.

[٦٦] دي ميستر كونراد، **اليدان الفارغتان، رسالة تريز ليزيو**، طبعة ثانية، مؤسسة دكّاش للطباعة، البوار- لبنان، ٢٠٠١. تعريب د. دعد قناب عائدة.

[٦٧] أبي خليل شحادة ميلاد، **الويل** لي **إن** لم **أبشر**، مؤسسة دكّاش للطباعة، ٢٠٠١. جمعه ونسقه وقدم له ونشره الخوري مكاريوس جبور.

[٦٨] جاموس يوحنا، **الحب الكبير**، مطبعة الإحسان، حلب، ١٩٦٩.

[٦٩] الحاج الأب إميل البولسي، **شفيعة المستحيلات، القديسة رينا دي كاسيا (١٣٨١-١٤٥٧)**، سلسلة الشهود ٢٨، طبعة ثانية، منشورات المكتبة البولسية، المطبعة البولسية، جونيه-لبنان، ١٩٩١.

[٧٠] الحاج الأب إميل البولسي، **المغمضة العينين**، سلسلة الواحة ٨، طبعة أولى، منشورات المكتبة البولسية، المطبعة البولسية، جونيه-لبنان، ١٩٨٨.

[٧١] الحاج الأب إميل البولسي، **الرسولة القديسة، إميلي دي فيالار ١٧٩٧-١٨٥٦**، سلسلة الشهود ٣٦، منشورات المكتبة البولسية، طبعة أولى، المطبعة البولسية، جونيه-لبنان، ١٩٩٢.

[٧٢] لطّوف الأب أنطون يوحنا، **السامرية والرجل السابع**، طبعة أولى، بيروت، ٢٠٠٣.

[٧٣] لطّوف الأب أنطون يوحنا، **الزواج المدني، المُساكنة، الاستنساخ**، قضايا معاصرة (١)، بيروت، ٢٠٠٢.

[٧٤] **الأمر الأهم لكنيسة الألف الثّالث**، سلسلة الفكر المسيحي بين الأمس واليوم ٢٢، منشورات المكتبة البولسية، طبعة أولى،، المطبعة البولسية، جونيه-لبنان، ٢٠٠٠. ترجمها المطران كيرلـس سليم بسترس.

[٧٥] جبران خليل جبران، **مؤلّفات**، المجموعة الأولى، مكتبة صادر، دار جبران، بيروت.

[٧٦] المرجع السابق.

[٧٧] تيودوريتوس أسقف قورش، **تاريخ أصفياء الله، نساك البطريركية الأنطاكية من مطلع القرن الرابع إلى منتصف القرن الخامس**، المطبعة البولسية، ١٩٨٧. ترجمه الأرشمندريت أدريـانوس شكّور.

لا أدري... لا أدري... لا أدري... لتوي نطقت بالحقيقة الوحيدة التي أفلجـت عـن صـدري وأزالت الغبار عن ادعاءي لوج الأسرار وتسلقي قمم الجبال وتحليقي فوق البحار والسهول وجلوسـي قرب القمر ومسايرتي للنجوم...

مدعية أنا... متعجرفة أنا... لوهلة ظننت أنّ خفايا الكون كنت قد خبأتها في خزانتي، ولكن عبثًا... فالكلمات كلّها قابعة في أعماقي تنتظرني... لم أعد أريد الانتظار-أنا من أكره الانتظـار- وأحسـب الوقت وأعد الساعات والدقائق والثواني علّي أسبقه يوما ولكن صدق قول أستاذٍ لي:" نحنا منقتل الوقت بس الوقت بيزبحنا"...

في نهاية المطاف، عدت إلى مركبي في رحلة جديدة إلى جزيرة جديدة خوفًا مـن أكـون "**وليمـة لأعشاب البحر**"[٨٠] فإنّ "**أصابع القدر أقوى مني**"[٨١].

---

[٧٨] أبو جودة بشارة، **قصص من صميم الحياة ١**، منشورات بيت العيلة، مطابع معوشي وزكريا.

[٧٩] الأمير رشا، **يوم الدين**، طبعة أولى، دار الجديد، بيروت، ٢٠٠٢.

[٨٠] حيدر حيدر، **وليمة لأعشاب البحر، نشيد الموت، رواية**، دار أمواج، بيروت، ١٩٨٨.

[٨١] مسعود ميخائيل، **أصابع القدر**، طبعة ثالثة، المطبعة البولسية، جونيه-لبنان، ١٩٨٦.

دروس وعبر

البخل

كنت أتحدث مع رجل في الثمانين من عمره عن خبراته في هذه الحياة، ومما قال لي: يا ابني، بإمكانك أن تبني صداقة مع جميع أصناف البشر، مع الكذوب ومع السارق ومع الزاني ومع اللئيم ومع الخبيث ومع الحسود ومع الحقود الخ، ولا أحد منهم يضرك، ولكن إياك ثمّ إياك أن تبني صداقة أو أن تثق بالبخيل فهو من جراء حبه للمال والمقتنى يكون على استعداد لأن يكذب ويسرق ويزني ويفعل جميع الرذائل، ولا يتوارى من أن يبيع كلّ شيء بما فيه ابنه أو ابنته بسبب بخله وحبه للأموال. ليتني سمعت من هذا الرجل ولم أثق يوما ببخيل.

الكرم

أخبرني رجل عن صديق له كان إذا ما دخل بيته زائر يمنعه من الخروج قبل أن يطعمه ويسقيه، وإذا اعتذر أو تمنع فكان صاحب البيت يرغمه حتى عن ولو اضطر إلى ضربه بالعصا ليأكل. ليت أمثال هذا الرجل يكثرون في هذه الأيام، فنحن اليوم بحاجة إلى أمثالهم لتعلّم دروس وعبر في الكرم.

أسوأ والد (ولا أقول أب)

أسوأ رجل؛ ولكنه لا يمكن أن يكون رجلاً؛ وأسوأ إنسان؛ ولكن صفة الإنسانية بعيدة عنه، وأسوأ امرئ؛ ولكن المروءة منه براء؛ وأسوأ شخص؛ ولكنه بدون هوية شخصية، هو ذاك الوالد؛ وكان خيرا له لو لم يتزوج وينجب؛ الذي يرى ابنه يسير منطلقًا نحو حتفه، ولا يمنعه، بل يتركه يفعل بحجة أنه يخاف على أعصابه. فهل أنت أيها الأب تفعل فعله؟

الصبر

في إحدى المرات التي كنت فيها أزور دار المسنين، وكنت مهموما وقلقًا بسبب أمر ما، رأتني عجوز قد أرهقتها هموم الحياة، فأحست بي، وسألتني قائلة: يا ابني، أين العقل؟ فوقفت حائرا، لا أدري بما أجيب، وراودني شعور بأنها تسخر مني. وبعد تفكير قليل، أجبتها بما تعلّمته، ظانا بأنه الجواب الأنسب على مثل هذا السؤال، وقلت: إنه في الرأس يا جدتي. فنظرت إليّ بحنو وحب وقالت: العقل في الصبر يا ابني. كان جوابها درسا لن أنساه مهما حييت. رحمها الله.

المزيفون

خلال زيارتي المتكررة إلى بيت المسنين، كانت امرأة عجوز تسترعي انتباهي بصمتها وحزنها وشـدة ألمها. وفي كلّ مرة كنت أحاول أن أتكلّم معها وأسمع منها واثقًا بأنّ لديها الكثير من الدروس لتعطيني. حاولت كثيرا ولكن بدون جدوى. وفي أحد الأيام فاجأتني بالخروج من صمتها عندما تنهدت وقالـت لي: تريد أن تسمع مني شيئًا؟ لكني أخاف من أن أجرحك. قلت لها: تكلّمي لا تترددي. فقالـت: لا تخف إلاّ من أولئك الذين يقرأون بالإنجيل. وبكت. كانت تلك آخر كلمة سمعتها منـها، رحمهـا الله. والله أعلم من هو ذاك المزيف الذي خدع تلك المرأة تحت شعار وستار الإنجيل.

الصمت القاتل

كنت ألتقي به كلّ يوم على الطريق. رجل في الستينات من عمره، مهمل ورثّ الثياب، ويبدو كأنّ لا أحد له. وفي إحدى المرات تشجعت ووقفت بقربه وسألته إذا كان يحتاج إلى شيء. وحاولت مرات عديدة، ولكن بدون أن أحصل منه على أي جواب. وعندما هممت أن أرحل خرج عن صمته ورماني بهذه الأبيات:

وأصعب ما قاسيته من ألم الهوى قُربِ الحبيب وليس إليه وصولُ
كالعيس في البيداءِ يقتلها الظمأ والماءُ على ظهورِها محمولُ

قال هذا وصمت، وحاولت مرة تلو الأخرى، وكنت أفعل ذلك كلّما رأيته علـى الطريـق، وبـدون جدوى، إلى أن غاب ولم أعد أراه البتة.

الصلاة

عندما كنت طفلاً علّمني والدي أن أصلّي الصلوات التي يعرفها جميع الناس. وبعد انخراطي في الحياة الإكليريكية تعلّمت الكثير عن الصلاة وقرأت الكثير من الكتب وأقوال القديسين في هذا الخصـوص. ولكني لم أعرف معنى الصلاة الحقيقية إلاّ بعد أن رقد بالرب ابني عماد.

القديسة القريبة البعيدة

تعرفت إليها، وكنت أخدم إحدى الرعايا في منطقة كسروان. كانت شابة في الثلاثينات من عمرها. وحيدة بين أخين شابين. وابنة أسرة مرموقة وتقية. متأهلة وعندها ثلاثة أولاد. أصابها المرض العضـال، ولم يترك مكانا في جسمها إلاّ وطاله. كنت أذهب لعيادتها مرة في الأسبوع أو أكثر بحسب ما كانـت تلح حالتها. اخترقت صميم حياتي بصمتها وصلاتها وخشوعها ومحبتها، وكنت أرى زوجهـا وأمهـا وأولادها الثلاثة يتألّمون، الأمر الذي زاد في شعوري بضرورة البقاء بقربها وقرب أسرتها. وشاء الـرب أن ترحل إلى حيث لا ألم ولا وجع. وكانت وفاتها في أوائل كانون الأول. ووحده الله يعلم كم تألّمت

لرحيلها، وكم كنت أشعر بها وهي تستعد للرحيل عن هذه الفانية. وقرب عيد الميلاد، وكنـت قـد وعدت بعض الأسر، ببعض المساعدات قبل حلول العيد، بكلّ أسف، لم يكن بإمكاني الوفاء بوعـدي. وقبل ثلاثة أيام من العيد، ولا أعرف لماذا، سمعت، حوالي الساعة الحادي عشرة ليلاً، صوتا في داخلـي يقول لي: لا تخف، سيكون كلّ شيئًا على ما يرام. وجاءني شعور قوي بأنّ هذه المرأة موجودة معـي، فطلبت منها مساعدتي. وفي اليوم الثّاني اتصل بي زوجها وقال لي: لقد تركت ليليان معي مبلغا من المال من أجل مساعدة من هم بحاجة في هذا العيد. وهكذا كان. نعم، يوجد في حياتنا قديسون عديـدون، وليليان واحدة منهم، وأنا لا أنساها منذ أن عرفتها، وأشعر بحضورها الدائم في حياتي.

الغدر

فيما كنت أتسامر مع أحد الرجال المخضرمين، خطر ببالي أن أسأله ما هو الغدر، ففعلـت. وكـم صعقت من جوابه عندما قال لي: عندما يفرغ جيبك من المال، إذ ذاك تعرف ما هو الغدر.